8me Année No. 349 — Lundi - 11 - 3 - 1940

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٣٤٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ صفر سنة ١٣٥٩ — الموافق ١١ مارس سنة ١٩٤٠ » السنة الثامنة

الفهـــــرس

صفحة

٤٤١ عبقرية محمد السياسية ... : الأستاذ عباس محمود العقاد
٤٤٤ إنما يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية ... ... } الدكتور زكى مبارك ... ...
٤٤٧ صراع اللغات ... ... : الدكتور على عبد الواحد وافى
٤٤٩ العقلية الألمانية من خلال الدراسة اللغوية ... ... } الأستاذ أبو حيان ... ...
٤٥٠ عام الفيل وميلاد الرسول : الدكتور إسماعيل أحمد أدهم
٤٥٥ محمد تيمور : الممثل والناقد والمؤلف المصرى ... ... } الأستاذ زكى طليمات ... ...
٤٥٨ من وراء المنظار ... ... : «عين» ... ...
٤٥٩ ذكرى أخى الهراوى ... : الأستاذ على الجندى ... ...
٤٦٠ لقب السفاح ... ... : الأستاذ عبد المتعال الصعيدى
٤٦٢ البعث ... ... [قصيدة] : الدكتور ابراهيم ناجى ... ...
٤٦٢ مطارف الربيع « : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٦٢ أناشيدى ... « : الأديب محمود السيد شعبان
٤٦٤ يا علماءنا ... نريد أن نعرف! : الأستاذ عزيز أحمد فهمى ...
٤٦٧ الكون يكشف عن نفسه — خفايا الضوء ... ... } الدكتور محمد محمود غالى ...
٤٧٠ نهاية الطريق ... [قصة] : ترجمة الأستاذ محمد بدر الدين
٤٧٦ رجمان ... . : الدكتور بشر فارس ... ...
٤٧٧ ارتجال المصادر ... ... : الأستاذ محمد أمين حسونة ...
الحجز على المتاع ... ... : أحمد محمد على ... ...
٤٧٨ استفهام — البروفسور ويلسن — حول لقب السفاح ...
حول لوبيا المجهولة ... ... : «أبو الوفاء» ... ...
٤٧٩ تصويبات فى العدد الممتاز ... : ... ...
« وحى الرسالة » ... ... : « المقتطف » ... ...

عبقرية محمد السياسية

للأستاذ عباس محمود العقاد

السياسة على معان كثيرة فى العرف الحديث . فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات ، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط فى أعمالها الخارجية ، ومنها ما يكون بين الراعى ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات ، ولكل معنى من هذه المعانى اصطلاحه فى العرف الحديث ، وإن جمعتها كلمة السياسة فى اللغة العربية

وقد تولى النبى عليه السلام أعمالاً كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة فى عموم مدلوله ، ولكننا لا نعرف بينها عملاً واحداً هو أدخل فى أبواب السياسة وأجمع لضروبها وأبعد عن المشاركة فى صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ الملى أو سائر الصفات التى اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية فى مراحله جميعاً منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدى قريش

ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود

بدأ بالدعوة إلى الحج فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته، بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل

العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه . فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى

ثم أفسد على قريش ما تمموه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوئة محمد والرسالة الإسلامية . فليس محمد وأصحابه أناساً معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم . فإذا خالفوا قريشاً في شيء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة ، وليس هو بشأن القبائل أجمعين

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تمموه من إغضاب العرب على الإسلام بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التي يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام ، فإذا حال بينهم حائل وبين ما يقصدون إليه فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه ، ولا وزر فيما أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين

وقد سمعنا كثيراً في العصور الحديثة عن المقاومة السلمية أو المقاومة التي تجتنب العنف ولا تعتمد على غير الحق والحجة . سمعنا بها في الحركة الهندية التي قام على رأسها غاندي وتابعه فيها بعض مريديه ، حتى كان لها من الأثر في إزعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية

وقيل يومئذ إن غاندي قد تتلمذ في هذه الحركة للمصلح الروسي الكبير ليون تولستوي . وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التي تحرم إيذاء الحيوان فضلاً عن الإنسان قبل أن يشرع ليون تولستوي مذهبه الجديد

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندي وتبشيره بتلك المقاومة السلبية لاعتقادهم أن الإسلام قد شرع القتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة .

لكن المثل الذي قدمه النبي صلوات الله عليه في رحلة الحديبية ينقض ما توهموه ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه، فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده ، ولكنه يضع كليهما حيث يوضع ، ويدفع بكليهما حيث ينبغي أن يدفع ، وهو الحكم المتصرف حيث يختار ما يختار ، وليس بالآلة التي يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار

وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجاً لا غازياً يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله ، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح إلا ما يؤذن به لغير المقاتلين

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب ، بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش ، وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسلك في دفعه أو قبوله أو مهادنته ، وهو عليه السلام يكرر الوصاة لأتباعه بالمسالمة والصبر منعاً للاتفاق بين خصومه على قرار واحد ، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين

ولما اتفق الطرفان — المسلمون وقريش — على التعاهد والتهادن كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة « الدبلوماسية » كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين

دعا بعلي بن أبي طالب فقال له : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم »

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش : أمسك ! لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم

فقال النبي : اكتب باسمك اللهم

ثم قال : اكتب « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل ابن عمرو »

فقال سهيل : أمسك ! لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك

وروي أن علياً تردد فمسح النبي ما كتب بيده ، وأمره أن يكتب « محمد بن عبد الله » في موضع محمد رسول الله

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد لم يردوه عليه ، وأنه

من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه ، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها في العام الذي يليه ، ويقيموا بها ثلاثة أيام ومعهم من السلاح السيوف في قربها، ولا سلاح غيرها.

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب ، فيعترف المشركون كرهاً أو طوعاً بصفة النبوة ولا يردون أحداً من مواليهم أو قاصريهم يذهب إلى النبي ويلحق بالمسلمين .

ولكنه عهد مهادنة أو عهد « إيقاف أعمال العداء إلى حين » كما يسمونه في اصطلاح العصر الحاضر ، فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية في أمثال هذه العهود من إثبات صفة المندوبين التي لا إرغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين ، ومن حفظ كل لحقه في تجديد دعواه واستئناف مسعاه.

فلو أن النبي عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية ، ونقض الوصف الذي يصف به المسلمين . فإن المسلم الذي يترك النبي باختياره ليلحق قريشاً ليس بمسلم ولكنه مشرك يشبه قريشاً في دينها وهي أولى به من نبي الإسلام

أما المسلم الذي يُرَد إلى المشركين مكرهاً فإنما الصلة بينه وبين النبي الإسلام وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب . فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه ، وإن كان وثيق الدين فبقي على دينه فلا خسارة على المسلمين

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هي الخاسرة بذلك الشرط الذي حسبته غنماً لها وخذلاناً لمحمد صلوات الله عليه ، فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد في حوزته رعاية لعهده قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهي في أمان في عهد الهدنة بين الطرفين ، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم إلى النبي لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة ، ولا استطاعوا أن يحجزوهم في مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم في عهد الحديبية ، ولو قضى العهد بولاية للنبي على من ينفر من مسلمي مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبي بالمحافظة عليه . وتم العهد فعرف من لم يعرف ما أفاء على الإسلام بعد قليل فجهر بمحالفة النبي من لم يكن يجهر بولائه، واستراح النبي من قريش ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه ممن أنكروا بني قريش وأمنوا أن تكون نصرتهم للاسلام حرباً يبتلون فيها بما لا يطيقون

ويوم نزلت الآية الكريمة على أثر اتفاق الحديبية « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما » لم يفقه الكثيرون معناها في حينها ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذي حسبوه محض تسليم ، ولكنهم فهموا أي فتح هو بعد سنتين ، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف وما يشبه الهزيمة في ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد

وهكذا تجلت عبقرية محمد في سياسة الأمور كما تجلت في قيادة الجيوش . فكان على أحسن نهج في سياسته إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته ، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته في رحلته ، وإذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة وإقامة الحجة في إنفاذ عزيمته ، وإذ قبل العهد الذي كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته ، وإذ نظر إلى عقباه ووصل به إلى القصد الذي توخاه .

عباس محمود العقاد

إنما يزدهر الأدب
في عصور الفوضى الاجتماعية
للدكتور زكي مبارك

[أُلقيت في كلية الآداب مناظرة بين الدكتور زكي مبارك والأستاذ لطفي جمعة برياسة الدكتور ابراهيم مدكور ، واشترك فيها فريق من طلبة الكلية ، وانتصر الحاضرون للرأي الذي دافع عنه الدكتور مبارك بهذه الخطبة الصريحة ، الخالصة من شوائب التودد للجمهور]

تعلمون أن أمثال هذه المناظرات لا يراد بها غير إيقاظ العقول بعرض طوائف من المذاهب والآراء ، فالمُناظِر لا يؤاخَذ بالرأي الذي ينحاز إليه ، ولا يطالَب بالوقوف عند ما يؤمن بصحته من الأدلة والبراهين

ليست هذه المناظرات إلا حركة عقلية يراد بها عرض صور مختلفة للوجه الواحد من وجوه الفكر والرأي ، فليس من حق أحد أن يقول : إني أدعو إلى الفوضى حين أقرر أنها من الفرص السوانح لازدهار الآداب والفنون

وبعد تسجيل هذا التحفظ أقول : إني مؤمن بالرأي الذي أعرضه اليوم من فوق منبر كلية الآداب ، فلا يضيرني أن أُتهَم بحمد الظروف التي تُشيع الفوضى في المجتمع ، ولا يؤذيني أن تكون أصواتكم في صف خصمي ، وهو صديق أعاديه في هذه الساعة عداوة مؤقتة

وأسارع فأعترف بأني أخاف أن تكون الهزيمة من نصيبي ، لأني اخترت الجانب الشائك من مناظرة اليوم ، ولأني أخشى أن يميل السامعون إلى إيثار السلامة ، فيعلنوا تأييدهم لرأي الخصم المحترم ، حتى لا يقال : إن كلية الآداب تشجع من يرى أن « الفوضى الاجتماعية » قد تعود بالنفع على الآداب والفنون ، وهي معهد يثور حوله الغبار من حين إلى حين

وأنا أفترض سلفاً أن الهزيمة ستكون من نصيبي لأواجه المناظرة بعزيمة المستقتل المستميت ، ولأجد ما أعزي به نفسي حين ترونني أبليت في الدفاع عن رأيي أحسن البلاء

ومن أجل هذا ، زهدت في البراعة الخطابية ، وأعددت خطبتي ، وقدمتُ بها مكتوبةً بلغة صريحة ، لتكون حجة باقية على صحة الرأي الذي تعصبت له وانحزت إليه

أما أرى أن الأدب لا يزدهر إلا في عصور الفوضى الاجتماعية، فما هي الحجج التي تؤيد هذا الرأي الجريء ؟

أستطيع أن أقول إن الفوضى الاجتماعية ترجّ الأذهان رجاً عنيفاً ، وتفتح أمام الأذواق أبواباً ومذاهب ، وتقهر العقول على التفكير في مصاير الإنسانية عند اضطراب المجتمع

وأستطيع أن أقول إن الفوضى هي التي مهدت السبيل إلى ظهور الحكمة على ألسنة الحكماء ، ولو شئت لقلت إن النبوّات لم تظهر إلا في الأوقات التي غلبت فيها الفوضى على المجتمع

فيكم من قرأ القرآن ، وفيكم من قرأ التوراة ، وفيكم من قرأ الإنجيل ؛ فهل فيكم من يجرؤ على القول بأن تلك الكتب المقدسة خلت من الثورة على اضطراب المجتمع؟ وهل فيكم من ينكر أن أعظم الجوانب في تلك الكتب هي الجوانب الخاصة بالتشريع ؟ ولمن توضع قواعد الشرائع إذا اطمأن الأنبياء إلى أن المجتمع في أمان من شر الفساد والانحلال ؟

وما قيمة الفضائل التي تمدّح بها الصالحون إذا صح أن العالَم صحيح الأديم وأنه لا يعرف التمييز بين الفاضل والمفضول ، ولا يشهد الفرق بين الصحة والاعتلال ؟

وهل سُميت الفضائل فضائل إلا بالقياس إلى الرذائل ؟ وهل تصوَّر الناس معنى الحياة إلا بعد أن شهدوا صورة الموت ؟ وهل أدركوا رَوْح اليقين إلا بعد أن أدركوا قلق الارتياب ؟

اسمعوا كلمة الحق

إن سلامة المجتمع من الفوضى والاضطراب لا تصل بالناس إلا إلى غاية واحدة : هي الأمان المطلق ، والأمان المطلق يقود الناس إلى هاوية البلادة والغفلة والحمق

وأنا لا أنكر أن السعادة قد تكون من نصيب الأحمق والغافل والبليد ، ولكني أنكر أن يكون التفوق في الأدب من نصيب هذا الطراز من « السعداء » فالأدب فنٌّ من المحنة باصطراع العقول ، واصطخاب الأهواء ، واضطرام الأباطيل ، وهو التعبير الصادق عما يثور في المجتمع من الاقتتال العنيف بين الرشد والغيّ

هل قرأتم وصف الجنة في الكتب الدينية ؟ فيها من كل

فاكهة زوجان ، وفيها حورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون ، فيها كل الطيبات ، وفيها الأمان المطلق من المرض والموت . ولكن هل سمعتم أن الجنة سيكون فيها كتّاب وشعراء وخطباء وجرائد ومجلات وكلية آداب ؟

وكيف تكون هذه المعاني في الجنة وقد أراح الله أهلها من صيال الشهوات والأهواء ؟

قيل إن أهل الجنة سيكون أكثرهم من البُله ، وقيل في تفسير ذلك إن البُله يقلّ تعرضهم للموبقات فيخرجون من الدنيا بسلام وقد أهّلتهم البلاهة لاحتلال الفردوس

وأقول بغير ذلك التفسير ، أقول إن أهل الجنة سيكونون بُلْهاً لأن الله سيرحمهم من التعرض لآفات الشطط والجموح في ميادين الفكر والعقل والوجدان

وما حاجة أهل الجنة إلى الذكاء وهو عناء؟ إن الذكاء وسيلة للتخلص من المعاطب ، وأهل الجنة في أمان من المعاطب

والأدب في جوهره تعبيرٌ عن بلاء الإنسانية بالصراع بين الحسن والقبح ، والنضال بين الشك واليقين ، فما حاجة أهل الجنة إلى ذلك التعبير وهم يُرزَقون بلا حساب ، ولا يحسّون الخوف من تلون النفوس وتقلب القلوب ؟

وأنتم تستطيعون الوصول إلى ما يشبه نعيم الجنة في كل وقت ، إن رضيتم بحظوظكم في الحياة ، ولكنكم لن تكونوا أدباء ، لأن الأدب ليس إلا تعبيراً عن ظمأ الأرواح والقلوب إلى غايات عالية لا يدركها الراضون عن حظوظهم في الحياة

الأدب يأخذ وَقوده من قلق الأفئدة والأرواح والعقول ، ولا يقع ذلك القلق إلا عند اضطراب المجتمع. فليت شعري كيف يجد خصمى حجته وهو ينتظر ازدهار الأدب في رحاب المجتمع الهادئ الرزين ؟

الأدب من صور الحياة ، والحياةُ تقلُّبٌ وتفزُّعٌ وصراع ، وهل يعرف السلام المطلق غير الأموات ؟

إن أساتذة الآداب يتحدثون بأن عصور الانحطاط السياسي في الدولة العباسية كانت عصور تقدم في العلوم والآداب والفنون وهم يعللون ذلك بالتنافس بين الرؤساء والأمراء والملوك

فما رأيكم فيمن يذكر لذلك سبباً آخر هو اليقظة التي خلقها انحلال المجتمع السياسي في العصر العباسي ؟

وهل كان النزاع بين العرب والفُرس إلا صورة من صور الاضطراب في المجتمع الإسلامي ؟ هو ذلك ، ولا ريب ، فأين من ينكر أن النزاع بين العرب والفرس عاد على الحياة الأدبية بأجزل النفع ، وقدم للأدباء فرصاً ثمينة لتشريح خصائص الشعوب ؟

وتسمعون في كل يوم أن مصر لها الزعامة الأدبية بين الأمم العربية . فمن أين وصلت إلينا الزعامة وهي حق ؟ أترونها نزلت علينا من السماء بعد انقضاء عصور الوحي ؟ أترون الأمم العربية قدمتها إلينا هدية ؟ لا هذا ولا ذاك ، وإنما كانت لنا الزعامة الأدبية لأننا نفوق سائر الأمم العربية في التمتع بأكبر نصيب من اضطراب المجتمع ، وإليكم بعض البيان :

في بلادنا تصطرع جميع المذاهب والعقائد . وفي بلادنا تقتتل جميع العادات والتقاليد . وفي بلادنا يلتقي البحران : بحر المدنية الشرقية وبحر المدنية الغربية . وفي بلادنا يجتمع الضب والحوت ، وتمتزج أنغام المؤذنين بأصوات النواقيس

عندنا برج بابل المشهور في التاريخ ، بل عندنا برجان هما الأزهر والجامعة المصرية ، يتجه أحدهما إلى الشرق فيكون خلف الضفة الشرقية للنيل ، ويتجه ثانيهما إلى الغرب فيكون حول الضفة الغربية

وهذا اضطراب بلا جدال ، لأنه تقلُّب للوجود بين الشرق والغرب ، ولكن من هذا التقلب ظفرتْ مصر بالزعامة الأدبية بين الأمم العربية

فالأديب المصري يغرِّب إن شاء فيرى القاهرة في ثياب (أليس) وسجربت ، ويشرق إن شاء فيراها في عباءة ليلى وظمياء

وبفضل هذه البلبلة بين الحضارة والبداوة نهضت قواعد الأدب المصري الحديث

وقد حدثت تلاميذي بكلية الآداب في سنة ١٩٢٧ أن الأدب لن يسمو ولن يرتفع إلا إذا اشتركت المرأة في سياسة المجتمع

ومعنى ذلك أن المرأة تخلُق في حياة الرجل ألواناً من الرضا والغضب ، والقسوة واللين ، وتسوق إليه فنوناً من الرفق والعنف والبؤس والنعيم

المرأة مصدر اضطراب في حياة الرجل ، وبفضل عصيان جدتها حوّاء عرف جدنا آدم هذه الأرض ، فحرث وزرع وحصد ، وعرف معاني اليأس والرجاء ، ومهّد لأبنائه سبيل الأدب الرفيع بوصف ما في الحياة من أزهار وأشواك ، وحقائق وأباطيل

والمرأة الوديعة لا تخلُق الأديب ، وهل في الدنيا امرأةٌ وديعة ؟

غضبة الله على جميع بنات حوّاء !

وما يهمني أن أدعوكم إلى الاصطباح والاغتباق بما عند الرعابيب من نزق وطيش ، فلست من أنصار الفوضى الاجتماعية . واشتراك المرأة في المجتمع يجره حتماً إلى الفساد والاضطراب ، وإنما يهمني أن أنص على أن الشر الذي يصحب حياة المرأة يؤرّث الحاسة الأدبية والفنية ، بفضل ما يؤرّث من الأذواق والأحاسيس

وفي الدنيا أحبار ورهبان وأشياخ كفاهم الله شر المرأة ، فعاشوا سعداء ، لا ينتقلون من البيت إلا إلى المعبد ، ولا من المعبد إلا إلى البيت ، وذلك نموذجٌ للحياة الخالصة من شوائب القلق والانزعاج

ولكن هؤلاء لن يصيروا أدباء ، ولن يكون لهم مكان بين أقطاب الفكر والعقل والذوق ، وإن ظفروا بنعمة عظيمة هي السلامة من شر الناس

ومالي أبعُد بكم في عرض الشواهد ؟ نحن اليوم في كلية الآداب ، فما هو السرّ في تفوق هذه الكلية من الوجهة الأدبية ؟ أيكون السرّ في أنها تدرس علوماً لا تدرس في الأزهر ودار العلوم ؟

إن كان اختلاف العلوم هو سرّ التفوق فمن حق الأزهر أن يقول إنه يدرس علوماً لا تدرس في كليات الجامعة المصرية . ليس السرّ في المكان ، وإنما السر في السكان ، كما يقول أهلنا في الريف

إنما تتفوق كلية الآداب بسبب ما تعاني من الفوضى الاجتماعية فهي أول معهد يلتقي فيه الفتيان والفتيات بلا تحجُّب ولا مداراة ، فإن لم تكن أول معهد يلتقي فيه الفتيان والفتيات في الدرس الواحد فهي أول معهد كثر فيه بنات حواء حتى بلغ عددهن المئات

ومن المؤكد أننا غير راضين في سرائر أنفسنا عن هذه الصورة من صور المجتمع ، وليس فينا من يطمئن كل الاطمئنان إلى أن تكون ابنته غرضاً للعيون ، يتأثر خطواتها من يشاء من أهل الفضول .

كلية الآداب في فوضى اجتماعية بشهادة الأفاضل من رجال الدين وبشهادة الأستاذ أمين الخولي . وفي هذه الفوضى إثمٌ كبير وفيها منافع ، فما هي تلك المنافع ؟ هي إذكاء الشاعر والعواطف والأحاسيس . هي قهر الفتيان والفتيات على تجميل مذاهبهم الحيوية في تناول شؤون الوجود

وهل من العيب أن يقال إن كل فتى يسرُّه أن يكون موضع الإعجاب من إحدى الفتيات ؟

اتركوا النفاق لحظة واحدة واسمعوا صوت الحق

إن الطالب في كلية الآداب لا يستطيع ولن يستطيع أن ينسى أنه محوط بأرواح لطاف ستنال حياته الحاضرة بالتغيير والتبديل . وهذا الطالب أحد رجلين : رجل بسيط يتجمل بالظواهر والأشكال فيحرص على هندامه بعض الحرص أو كل الحرص ، ليظهر أمام الفتيات بمظهر مقبول . ورجل عبقريّ الروح لا تهمه المظاهر والأشكال ، وإنما يهمه أن يكون رجلاً يملك السيطرة بالمنطق والعقل والبيان

ومن هنا يجوز لكم أن تنتظروا مطلع الشمس من هذه الكلية ، يوم يكون فيها طالبات لا يرون الرجولة في المظاهر والأشكال ، وإنما يرون الرجولة في فحولة الأفكار والآراء والعقول . وإنما اخترت كلمة « يرون » بهذه الصورة الصرفية لأن بنات هذه الكلية « سيكونون » في إسناد الضمائر « مساوين » للرجال في مضمار المذاهب والآراء

ولن يقع ذلك بدون فوضى اجتماعية ، ولكن تلك الفوضى ستصنع الأعاجيب في تأريث القلوب والعقول

أما أنا فأكره الفوضى ، وأرجو أن تخلو منها حياتي وحياتكم وحياة الأساتذة بهذه الكلية ، إن صح أن فيكم وفيهم من ابتلته المقادير بالشكاية من اضطراب المجتمع الجديد

ولكني أقف هنا موقف المؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية في معهد قد اشتغلتُ فيه بالتدريس أربع سنين ، ومن حقي عليه أن يسمح بأن أجهر في رحابه بقول الحق ، فأقرر أن الأدب يزدهر في عصور الفوضى الاجتماعية

وهل أراني في حاجة ، بعد الذي سلف ، إلى أدلة وبراهين ؟ اسمعوا ، اسمعوا :

(البقية في العدد الآتي) زكي مبارك

في الاجتماع اللغوى

صراع اللغـــات

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ذكرنا في مقال سابق[١] أن الصراع بين اللغات ينشأ عن عوامل كثيرة أهمها عاملان: أحدها أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة، فيتبادلا المنافع، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي. ثم تكلمنا عن الحالات التي يؤدى فيها العامل الأول إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وما يمتاز به هذا التغلب من خصائص وما يتصل به من شؤون

وسنعرض في هذه الكلمة للحالات التي يؤدى فيها العامل الثاني إلى مثل هذه النتيجة

* * *

يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما فتشتبكان في صراع ينتهي أحياناً إلى تغلب واحدة منهما على الأخرى فتصبح لغة الشعبين؛ ويحدث هذا في حالتين:

الحالة الأولى: إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه، وتضيق مساحته بهم ذرعاً، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين. وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته. ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية؛ فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا الوسطى (بسويسرا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى[١]

(١) عدد ٣٤٧ صفحة ٣٢٥ وتوابعها

الحالة الثانية: إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له، وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوى النفوذ؛ على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور

والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ. فلغة شعوب «الباسك» Basque قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين، وأمام اللغة الإسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الإسبانيين حتى كادت تنقرض في كلتيهما[٢]. — واللهجات السلتية[٣] التي كان يتكلم بها معظم السكان بإرلندا واسكتلندا وويلز قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ انجلترا في هذه البلاد، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث. وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التي بقيت بمقاطعة البريتون Bretogne (في القسم الغربي من فرنسا على سواحل الأطلانطيق)، فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا في هذه المقاطعة، حتى لم يبق

(١) يرجع بعض مظاهر هذا التغلب إلى الغارات التي شنها الجرمان قديما على هذه المناطق، أي إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل. فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التي تم فيها تغلب اللغة الألمانية في صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان

(٢) تقطن شعوب «الباسك» منطقة جبال البرانس الغربية في المدونتين الأسبانية والفرنسية بمناطق بيسكاي Biscaye وألافا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navarre. (بأسبانيا) وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا — وتسمى لغتهم بالباسكية أو الأسكارا Euskara. وهي ليست من فصيلة اللغات الهندية الأوربية، ولا من فصيلة اللغات السامية

ويدل الاحصاء الذي عمله الأستاذ لويس لوسيان بونابرت Louis Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ على أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفا في أسبانيا ونحو ١٤٠ ألفا في فرنسا — ولكن ليس من شك في أن منطقة اللغة الباسكية، وبخاصة منطقتها الأسبانية، كانت قديما أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الاحصاء؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والأسبانية على كثير من أجزائها وخاصة في إقليم نافار Navarre

هذا، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم في المناطق التي حلوا بها، ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم.

(٣) هي لهجات شعوب السلت Celtes، التي كانت قديما تقطن أوربا الوسطى، ثم انتشرت عشائر منها بفرنسا وإسبانيا وبريطانيا. ولغاتها من الفصيلة الهندية — الأوربية

لها إلا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ[1]. — واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان والونيا Wallonie[2] ببلجيكا ولنحو ٢٢٪ من سكان سويسرا. — واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٥ر٣ ٪ من سكان هذه الجمهورية

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى المملكة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ؛ فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة والونيا ذات اللسان الفرنسى ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان فى هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر ») وتنتقصها من أطرافها . ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠٪ من أهلها) أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحياناً بضعة قرون ، فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ؛ ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretogne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان . ولا تزال اللهجة السلتية لغة محادثة بين عامة الإرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى العامل الأول[1] . غير أن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ، وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ، ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ، ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً)، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم

* * *

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها نفس المراحل التى أشرنا إليها فى العامل الأول[2] فينفذ الانحلال أولاً إلى مفرداتها ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها .

على عبد الواحد وافى

ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة باريس

(١) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من الاستقلال الذاتى حتى عام ١٤٩١ (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الأول — وقد انقرضت اللغة السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم — وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت بضعة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيا بينهم؛ أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية . ولكن بنال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف

(٢) هو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون الفلامندية وهى إحدى شعب اللغات الجرمانية الغربية

(١) عدد ٣٤٧ صفحتى ٣٢٦ ، ٣٢٧

(٢) عدد ٣٤٧ صفحة ٣٢٧

العقلية الألمانية

من فصول الدراسة اللغوية

للأستاذ أبي حيان

كنا في ساعة من تلك الساعات الجميلة التي تتكاشف فيها الأذهان، وتتصافى فيها العقول، وتنطلق فيها الخواطر؛ والتي تدّخرها الذاكرة بين أطوائها، لتكون ذخيرة من السعادة، تستمدها النفس في أيام الشقاء، وتنعم باستحضارها كلما طغت عليها الآلام، وحزبتها الأيام. وكنا نتدارس في تلك الساعة طرفاً من علم اللغات المقارن، مما يتعلق بعلامات الإعراب، ومكانها في مختلف اللغات، وأنها سمة من سمات اللغات البادية: كاللاتينية القديمة، واليونانية الأولى. وما بقاؤها في اللغة العربية الشريفة، وقد جازت دُور البداوة، وشاركت في بناء الحضارة، وأعرقت في ذلك إعراقاً، إلا مظهر من مظاهر القداسة التي أسبغها القرآن الكريم عليها، بنزوله بها. والقرآن خالد خلود النفس: لا تبديل لكلمه، ولا تغيير في نظمه، ولا تحوير لوضعه؛ وكذلك اللغة العربية التي ارتبط كيانها بكيانه، وأخذت مكانها من مكانه. فهذه العلامات الإعرابية هي في حقيقة وضعها وصرد أمرها، مظهر من مظاهر البداوة الإنسانية في دور من أدوارها.

ولقد تنزل هذا الرأي من عقولنا ومشاعرنا منازل متفاوتة، فمنا من مال إليه وأخذ به لطرافته، ومنا من أنكره لغرابته، إلى غير ذلك من الحالات المختلفة باختلاف المزاج العقلي، ولكنه لم يلبث أن أثار في أنفسنا طائفة من الخواطر متعارضة، فلم يلبث ذلك المجلس الهادئ القارّ الرزين أن تحول عن هدوئه، حين انطلقت تلك الخواطر متدافعة متضاربة... فماج الجو من حولنا وثار، وطال الجدَل واشتد... وقد اختلفت أساليب المحاجة، وتشعبت طرائق القول وأفانينه، على ما يقع في الخاطر، وعلى ما توحي به المناقشة.

ولكن أحدنا، وكان في معارضة الرأي منذ بدا، وكأنما كان يدخر ـ لحاجة في نفسه ـ هذا الوجه الأخير من المعارضة، أخذ يقول: «كيف يستقيم هذا الرأي لكم، وكيف يصح في الاعتبار العلمي، إذا كان بين يدينا ما يأتي بنيانه من القواعد؟ أنسيتم أن اللغة الألمانية من اللغات المعربة التي تلتزم الإعراب التزاماً لا هوادة فيه ولا تسامح في قواعده؟ إذن، فاعلموا أنكم بين اثنتين لا ثالثة لهما: إما أن تنزلوا عن رأيكم، وتحتسبوا لدى «الجدل المجرد» جهدكم، وإما أن تلجوا في مذهبكم ـ وأعيذكم من اللجاجة في الباطل حين يكشف عنه غطاؤه ـ فتزعموا أن اللغة الألمانية لغة متبدية، وأن الجنس الألماني لا يزال في دور من أدوار البداوة. ويالها إذن من جرأة على الواقع ومجازفة بالقول! إذ ما كان لأحد أن يذهب به وهمه هذا المذهب، فاللغة الألمانية هي — فيما يعترف الناس جميعاً — لغة الحضارة في أوسع معانيها، وأكمل ما عرف من صورها...»

ثم أخذ صاحبنا يمد شعب الحديث في كل مذاهبه الممكنة، ويفيض في بيان هذه الحضارة وتمجيد أصحابها، ويستشهد من هنا وهناك، في حماسة متقدة، وبلاغة خلابة، حتى لحسبناه — ونستغفر الله — داعية من دعاة النازي، فهو يجرب فينا أساليبه، ويتخذ منا موضوعاً له. وهكذا لم يلبث الميدان أن تحول ـ على غير إرادتنا ـ من بحث لغوي ومدارسة علمية، إلى جدل سياسي، يهدأ ويفور، ويعتدل ويجور؛ وبقيت المسألة الأولى في موضعها حتى اليوم ـ فيما أعلم ـ لم يبتّ فيها برأي، ولم ينته فيها إلى مقطع.

انفض هذا المجلس ومضى كل ما فيه، إلا من هذه النفحة الروحية الخالدة — التي أودعها الله فينا — وأطلقنا عليها كلمة «الذاكرة»، فقد أضفت عليه معنى الخلود، ومضت به تختزنه بين ما تختزن، مما يعمل دائباً في تكوين شخصية هذا الإنسان الظاهرة والمستكنة، والحاضرة والمستقبلة؛ حتى إذا هاجته الحوادث، واستثارته الأشباه والنظائر، برز من مكمنه، وأخذ يؤثر في خيالنا، كما تؤثر المحسوسات في حواسنا.

وأنا منذ الحرب القائمة لا تزال الذاكرة تطلق لي صورة ذلك المجلس، وما تفتأ هذه الصورة تختال لي، وترود أمامي، وتتبرج لعقلي. فإذا بي أسائل نفسي: أيكون الشعب الألماني لا يزال يعاني البداوة في دور من أدوارها؟ أليست هذه المظاهر المختلفة في مسلكه من الحرب وإثارتها، وفي تقديره للحرية الشخصية وقيمتها، وفي تلك الدعاوى المريضة التي لا يفتأ يقررها ويلج فيها، وفي غير ذلك من الملابسات التي تنتظم الماضي والحاضر، أليس كل ذلك

تحقيق تاريخي

عام الفيل وميلاد الرسول

[تقدمة تحية إلى الدكتور محمد حسين هيكل باشا]

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم

عام الفيل

كان الرأي الشائع في الدوائر التاريخية العلمية أن المصادر اليونانية لم تتحدث عن تعرض الأحباش للحجاز ، ولا عن سفر الفيل(١) غير أن المباحث الدقيقة التي نشرها المستشرق العلامة تيودور نولدكه عن تاريخ صلات الفرس بالروم(٢) . بينت أن المؤرخ پروكوب اليوناني تحدث عن تعرض الأحباش للحجاز بتحريض الروم(١) ، ومن ذلك الحين اتخذت الدراسات التاريخية وجهة أخرى تبدأ فيها بدراسة الوقائع من وجهة نظر المصادر اليونانيـة ، وتمحص على أساسها ما ورد في كتب المؤرخين العرب(٢) ، وهذه الوجهة التي مال معها المستشرقون صحيحة الأسس ؛ لأن مؤرخي العرب تأخر بهم العهد نحو ثلاثة قرون من الزمان ، تدرجت فيها وقائع الجاهلية العربية على الأفواه وتنقلت على الألسنة في فترة من الزمان ، حمل في تضاعيفه من الأسباب القوية ما يجعله يتناول الواقعات والحوادث التاريخية بتأثيره ، فينسج من حول مادتها الأقاصيص المتقومة بروح العصر وهكذا كان أن سلمت وقائع الجاهلية العربية لعصر التدوين في القرن الثاني للهجرة ، بعد أن غابت حقائق هذه الوقائع في تيه من الأساطير التي حيكت من حولها والتي غطت على أمرها(٣) ، ومن هنا نجد للمصادر اليونانية قيمتها التاريخية ، باعتبارها مصادر معاصرة للوقائع التي جرت ، ومن هنا يمكن اتخاذها محكا لدراسة الروايات العربية ، واستخراج العناصر التاريخية منها

يذكر لنا پروكوب أنه في السنة الخامسة من حكم الامبراطور جوستنيان ، أعني حوالى سنة ٥٣٠ ميلادية ، حمل الأحباش على اليمن واستولوا عليها . وهو يصور أسباب هذه الحملة اعتماداً على ما يقدره يوحنا المؤرخ اليوناني فيقول : ان يوسف ذا نواس (دومينوس الحميري : عند يوحنا) قبض على بعض التجار من نصارى الروم وقتلهم ، واستعبد نصارى نجران ، وأخذ يقطع السبيل على تجارة اليونان ، فكان نتيجة ذلك أن كسدت التجارة وساءت الحالة الاقتصادية . وقد تضرر من هذه السياسة أقيال اليمن ، فخرجوا تحت لواء أحدهم ، وهو « أيدوج » الوثني ، وجرت بينهم وبين ذي نواس معارك وحروب لم يثبت فيها ، وانتهى أمره بأن قتل . وانتهز الأحباش فرصة تحارب اليمنيين فشنوا الغارة على بلاد اليمن تحت قيادة « أبرهة » ـ الذي كان في الأصل عبداً لأحد تجار الروم النازلين ثغر أدوليس ـ وفتكوا

(١) Caussin de Percival في Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islams ، باريس ١٨٤٧ ، ص ١٤٥

(٢) Theodor Noldcke في Geschichte der Perser und Araberzur zeit der Sasaniden ، ليدن ١٨٧٩ ، ص ٢٠٠

(١) Prokop في De Bello Persico ، بن ١٨٣٣ ، ج ١ ص ٢٠ ، ١٠٤ ، ١٠٧

(٢) Leone Ceatani في Annali dell'Islam ، ميلانو ١٩٠٥ ، فقرة ١١١ و ١١٧

(٣) I. A. Edham في Islam Tarcki ، استانبول ١٩٣٥ ، ج ١ ص ٢٩١ وكذا من مصادر التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٣٦

أشبه بالعقلية البدوية ؟ وهذه المظاهر الفخمة المتطاولة التي تزعم للناس أنها واهبة الحضارة ، ورافعة بنيانها ، ومثبتة أركانها ؟ ألا يمكن أن يكون وراءها روح بدوية غلابة متغلغلة في العقلية الألمانية ، هي التي تنهج لهـذا الشعب سبيلها ، وتفرض عليه قوانينها ، وتحدد له غاياتها ؛ وهي التي بعثته إلى هذا المسلك وإلى نظائره في التاريخ القريب ، مما نحن في مشاهده النكرة ، وآثاره المروعة ؟

لعل ذلك كله جائز مقبول ، وإن الدراسـة اللغوية هي — فيما نعتقد — من صميم الدراسات المتعلقة بعلم الإنسان Anthropologie ، ومن خير المقدمات التي تهدي إلى معرفة طبائع الشعوب وخصائص الأجناس . فإذا اطردت هـذه الدراسة اللغوية مع نتائج الأبحاث الاجتماعية كان ذلك أقوى لها ، وأجدر أن يخرجها من دائرة الفروض ، ويدنو بها إلى منطقة الحقائق العلمية . فهل لنا أن نذهب ذلك المذهب فيما نحن الآن بصدده ؟

أبو عبادة

بأيدوج ، وأخضعوا اليمن لسلطة نجاشي الحبشة[١]

غير أن المصادر العربية تجمل من أيدوج هذا قائداً حبشياً ، وتسميه أرياط وأنه باسم النجاشي حارب ذا نواس ، وبعد أن تغلب عليه حكم اليمن ؛ إلا أن « أبرهة الأشرم » أحد قواد الحملة الحبشية ثار عليه ونجح في إزاحته عن السلطة ، وتمكن من قتله وبسط نفوذه على اليمن كلها وحكمها باسم النجاشي[٢] . ونقطة الاختلاف هذه من الممكن تحقيقها ، لكنها لا تقع من غرضنا في هذا البحث، وإنما الذي يهمنا تقديره أن المصادر العربية تماشي المصادر اليونانية في أن اليمن سقطت تحت حكم الأحباش بعد عهد ذي نواس (دومينوس[٣]) . وبعد أن استولى الأحباش على اليمن واستقروا فيها مدة ، حدث أن أرسل الامبراطور جوستنيان سفيراً يدعى جوليان ، عرض من قبله على النجاشي فكرة عقد محالفة مع الروم ضد الفرس ، ويكون دور الأحباش فيها التعرض للفرس من جهة بلاد العرب التاخمة لجنوب غربي الحدود الفارسية ، وذلك لتخفيف الضغط على الروم في صراعهم مع الفرس على تخوم الحدود بين الامبراطوريتين[٤] . وهذه السفارة حدثت في حدود سنة ٥٤٠ ميلادية[٥] ، كما يعيّن ذلك التاريخ المصادر اليونانية ، في وقت كانت الصلات قوية ووثيقة بين النجاشي وامبراطور الروم . ومما لا شك فيه أن جوستنيان اعتمد على هذه الصلات أولاً ووحدة العقيدة الدينية التي تجمعه بنجاشي الحبشة ثانياً ، ليطلب مؤازرة النجاشي له في الحرب التي اشتدت بينه وبين كسرى أنو شروان سنة ٥٤٠ ميلادية[٦]

ولم تكن فكرة إمكان مساعدة الأحباش للروم في صراعهم ضد الفرس ، إلا فكرة خيالية لا يمكن أن تتحقق في عالم الواقع . إذ لم يكن الأحباش أصحاب أسطول بحرى ضخم يمكنهم من غزو

(١) Prokop في المرجع السالف الذكر

(٢) حسن ابراهيم حسن في تاريخ الاسلام السياسي ، القاهرة ١٩٣٥ ج ١ ص ٤٤ واسرائيل ولفنسون في تاريخ اليهود في الجاهلية وصدر الاسلام ، ص ١١٦

(٣) I. A. Edham في المرجع المذكور سابقا ، ص ٢٩٢

(٤) Th. Noldekc في المرجع السالف الذكر ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١

(٥) Leone Ceatani في الكتاب المذكور ، فقرة ١٠٨ ، الحاشية رقم ١

(٦) الكاتب في الكتاب المذكور له ، ص ٢٩٢ وكذلك ص ٢٠٠

فارس من جهة الخليج الفارسي ، ولا كان في إمكانهم إرسال حملة من اليمن قاعدتها في بلاد العرب عبر صحرائها للتعرض للتخوم العربية الفارسية ، لأن طبيعة تضاريس بلاد العرب ، لا تجعل وجهاً لإمكان نجاح مثل هذه الحملة[١] . وقد أمكن النجاشي أن يدرك هذه الحقيقة ، لإلمامه بالموقف الذي غاب عن الروم وقيصرهم ومن هنا كانت المماطلة دائماً من جانب النجاشي والاعتذار عن إمكان تقديم مساعدة فعالة للروم في صراعهم ضد الفرس[٢] . فلما اشتد الصراع وبلغ أقصاه سنة ٥٤٠ ميلادية ، وأرسل جوستنيان رسولاً خاصاً (سفيراً) هو جوليان ، اضطر النجاشي مجاملة أن يأمر عامله على اليمن ، أبرهة ، أن يرسل قسماً من قواته شمالاً على زعم التحرك للتعرض للتخوم الفارسية . والطريق الطبيعي الممتد من اليمن إلى حدود فارس يمر بمكة وينتهي عند وادي الرمة أحد روافد الفرات فيما مضى[٣] . ومما لا ريب فيه أن الأحباش اتخذوا هذا الطريق مسلكهم نحو الشمال . غير أن القوات التي أرسلوها حين انتهت إلى الحجاز ، كان التعب قد نال منها والمرض قد أفنى معظم رجالها ، والجدري فتك بجنودها[٤] فاضطر الأحباش أن يسحبوا قواتهم ويعتذروا بخسائرهم إلى الروم ، ويقفوا عند هذا الحد . غير أن العرب من سكان الحجاز كان قد هالهم تقدم الأحباش في جيش عرمرم (بالنسبة لهم) ورأوا أنهم يبيتون لهم شراً ، فلما أصيبوا بالوباء ، ورجعوا ، أيقن العرب أن ذلك أثر من تداخل العناية الإلهية التي حفظتهم مما كان الأحباش يبيتونه لهم[٥] . وهذا هو المصدر التاريخي الذي حيك من حوله

(١) البرنس ليون كاتبا في الحوليات الاسلامية ، ميلانو ١٩٠٥ ، فقرة ١٠٨

(٢) Prokop في De Bello Persico ، ج ١ ص ٢٠ و ١٠٤ و ١٠٧

(٣) Charles M. Soughty في Travels in Arabian Deserta, Cambridge 1888 ، ج ٢ ص ٣٢٩ و D. G. Hogalh في The Near East ، لندن ١٩٠٢ ، ص ٦٩ ، ٧١ و ٧٢ و ٧٦

(٤) انظر لنا تاريخ الاسلام ص ٢٩٤ وكذا انظر كايتاني في الحوليات الاسلامية ، ميلانو ١٩٠٥ ، فقرة ١٠٨ وتاريخ الخميس ، بولاق ١٣٠٢ ص ١٢ ، ٢١٦ ، وعلى وجه خاص ص ٢١٦ سطر ١٩ وكذا ابن دريد في الاشتقاق ص ١٠١ سطر ٣ وابن خلدون طبعة بولاق ج ٢ ص ٦١ ، ٦٢ وتفسير الكشاف طبع الهند ج ٢ ص ١٦٣٢

(٥) تاريخ الاسلام ص ٢٩٥

كل روايات العرب عن سفر الفيل [1]

* * *

تروى المصادر العربيّة أن السبب فى تعرض الأحباش لمكة يرجع إلى أن أبرهة الأشرم شـيد هيكلاً فى صنعاء حاضرة اليمن [2] ، وذلك بغية صرف الناس عن الكعبة . غير أننا نعلم من المصادر المسيحية أنها لم تشر ألبتة إلى مسألة بناء هيكل جديد فى صنعاء حاضرة اليمن (العربية السعيدة Arabia Felix) على عهد أبرهة [3] . هذا فضلاً عن أن المؤرخ أوزيب فى بحثه عن « تاريخ الكنيسة » ، يتناول بالذكر النصارى من العرب وقساوستهم وأصحاب المآثر منهم على الكنيسة، وهو لا يذكر شيئاً عن أبرهة، وعن تشييد هيكل فى صنعاء [4]

غير أننا نعلم أن المسيحية كانت منتشرة فى نجران ، وفى بعض المناطق من اليمن ، وأنه كان باليمن قسس من النصارى على عهد حكم الأحباش لها [5] . ولا شك أن هؤلاء القسس الذين يرعون شؤون طائفتهم الروحية ، كانوا يتخذون لأنفسهم فى حاضرة اليمن هيكلاً ، يظهر أنه كان النواة التى حيكت من حولها روايات العرب . هذا ، وربما كان الأحباش وهم نصارى اعتنوا بهذا الهيكل وزينوه بما يليق بمكانتهم كنصارى حاكمين للبلاد ؛ وربما حمل هذا العمل عند بدو الصحراء وعرب الحجاز على محاولة الأحباش أن يجعلوا من هيكلهم نظيراً للكعبة . ولا شك أن هذا الوهم لم يكن ليمكن تصوره ، خصوصاً وأن الأحباش إذا فرض أنهم قاموا بمثل هذه المحاولة التى ينسبها مؤرخو العرب لهم ، فستكون هذه المحاولة وقفاً على النصارى من العرب

(١) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١١١ وما بعده ، وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٤٣ ، ٦١ . وأخبار مكة للأزرقى ص ٨٦ — ١٠٢ وأخبار الأول لابن اسحاق ص ١٩ — ٢١ وسيد أمير على فى مختصر تاريخ العرب ، لندن ١١١٩ ص ٤١.

(٢) أبو صالح الأرمنى فى كنائس وبيع مصر وبعض الأقطار المجاورة طبع لندن ١٨٩٥ ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ من الترجمة الانجليزية و ص ١٣٩ المتن العربي

(٣) البرنس ليون كايتانى فى الحوليات الاسلامية ، ج ١ فقرة ١٠٨ الهامش رقم ٢

(٤) المرجع السابق ذكره توا

(٥) Adolf Harnack فى Die Mission und ausbereitung des christenthums in den Easten Drei jahrhundert طبعـة ليبزيغ ١٩٠٢ ، ج ١ ص ٤٧٧ سطر ٢٠

وهؤلاء بحكم دينهم منصرفون عن الكعبة . فإذا جاز أن نحمل هذه المحاولة على الرغبة فى التبشير بالمسيحية بين العرب ، فلا شك أن مثل هذا الحادث الخطير لم يكن ليمر بدون إشارة فى كتب تاريخ الكنيسة الشرقية . ومن هنا لا نرى محلاً لقبول ما يقول رواة العرب عن سبب تعرض الأحباش للحجاز [1] .

* * *

إذا صحت استقراءاتنا ونظرتنا للموضوع ، فإن الصلة تكون مفصومة بين تعرض الأحباش للحجاز ومكة ، وبين وجود هيكل للنصارى بصنعاء . على أنه بعد ذلك مما يستوقف النظر، ما نراه من الاتفاق عند مؤرخى العرب فى تسمية الحملة الحبشية بسفر الفيل ، وذلك على اعتقاد وجود بعض الفيلة فى قوات الأحباش [2] . على أن اعتقاد وجود بعض الفيلة فى جيش الأحباش باليمن يسوقنا إلى مواقف على جانب كبير من الخطورة ، يميل معها بعض المؤرخين الأعلام من الغربيين إلى إنكار وجود الفيلة فى قوات الأحباش [3] . ذلك لزعمهم أنه لا يمكن تصور إمكان الاحتفاظ بالفيلة فى اليمن وتسييرها فى صحارى نجران [4] . فضلاً عن أن الفيلة الإفريقية (التى قد يكون الأحباش جلبوها إلى اليمن إذا صح هذا الاعتقاد) من الصعوبة ترويضها حتى أن بعض الثقات الأثبات من علماء الحيوان يرون استحالة ذلك [5] وهذه الاستحالة جعلت المؤرخين يرجحون أن تكون الفيلة التى ورد ذكرها فى حروب القرطاجنيين قديماً فيلة مجلوبة من الهند [6] غير أن افتراض جلب الأحباش فيلتهم من الهند يقف فى سبيل قبوله أن الأحباش لم يكونوا على دراية بترويض الفيلة [7] ،

(١) أنظر لنا — تاريخ الاسلام — استانبول، ١٩٣٥٢ ص٣٠٤ و ٣٠٥

(٢) أنظر المصادر الاسلامية والعربية فى هذا الباب

(٣) البرنس ليتون كايتانى فى الحوليات الاسلامية ، فقرة ١٠٩ هامش رقم ١

(٤) أنظر لنا — تاريخ الاسلام — ١٩٣٥ص٣٠٤ وما بعده

(٥) Edmond Perrier فى La Vie des Animaux Illustrée

(٦) Edward Charton فى Voyages anciens et Modernes باريس ١٨٦٧ ج ٢ ص ٢٩ وكذا P. Armandi فى Histoire militaire des éléphants ، باريس ١٨٤٣ ، ص ١٢

(٧) ليون كايتانى فى الحوليات الاسلامية ، فقرة ١٠٩ وهوامشها . ومما يحسن الاشارة إليه هنا أن الأحباش استعملوا فيلة هندية فى حروبهم أنظر Henry Zule فى The book of M. Blo لندن١٩٠٣ج٢ص٤٣٤

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لأنهم لم يكونوا أصحاب أسطول يمخر عباب البحر الهندي ، حتى يمكنهم جلب الفيلة الهندية [١] على أن هذه الاعتراضات من الممكن ردها إذا لاحظنا أمرين غابا عن هؤلاء الباحثين : الأول أن الأحباش استعانوا بأسطول الروم لنقل جيوشهم عبر باب المندب والبحر الأحمر حين شنوا الغارة على اليمن [٢] . وثانياً أنه كان للروم سفائن حربية وأخرى تجارية في البحر الأحمر [٣] . وهذا يجعل من الممكن جلب بعض الفيلة من الهند بواسطة سفائن الروم وأن يستعين الاحباش ببعض الهنود في تسيير هذه الفيلة في حملتهم على فارس . ولاشك أن تعاون الروم مع الأحباش أولاً ، والغرض من الحملة وهو مساعدة الروم ثانياً يجعل لتفسير تسمية حملة الأحباش بسفر الفيل وجهاً مقبولاً .

تقدم الأحباش بقواتهم شمالاً ، لكنهم لم يكادوا يقربون مكة حتى ألمت بهم كارثة أودت بهم . وبعض المراجع العربية ترجح أن تكون هذه الكارثة هي تفشي الجدري في جيش الأحباش [٤] . والقرآن الكريم يؤيد كلام المؤرخين العرب

على أن إشارة القرآن إلى أصحاب الفيل ، تحمل في تضاعيفها دلائل قوية على معرفة العرب لقصة سفر الفيل من جهة ، وعلى أنها حديثة العهد بهم ؛ على أن ما قدمه القرآن لنا في سورة موجزة توسع فيه رواة العرب وخلطوه بالأقاصيص وشحنوا به كتب التاريخ والسيرة والأدب . وهنا لك بعض الشعر المزعوم قوله في حادثة الفيل ، نجد بعضه منسوباً لابن الزبعرى والبعض الآخر لأمية بن أبي الصلت . فمن المنسوب للأول هذه الأبيات :

وتنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تُخلق الشعرى ليالي حرّمت ... إذ لا عزيزَ من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يئوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجُرهُم قبلهم ... والله من فوق العباد يقيمها

أما الأبيات المنسوبة لأمية فهي :

ومن صنعه يوم فيل الحبو ... ش إذ كل ما بعثوه رَزَم
محاجنهم تحت أقرابه ... وقد شرّموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مغولاً ... إذا يمموه قفاه كُلِم
فولى وأدبر أدراجه ... وقد باء بالظلم من كان ثَم
فأرسل من فوقهم حاصباً ... فلفّهم مثل لف القُزُم
تحض على الصبر أحبارُهم ... وقد ثأجوا كثؤاج الغنم

ويفهم منها أن الكارثة التي ألمت بأصحاب الفيل كانت مزدوجة : ريح سموم هبت عليهم ، ووباء تفشى فيهم ، وحمل الوباء عند العرب على الريح السموم [١] . على أنه مما يستوقف النظر في هذه الأبيات ورود لفظة « الأحبار » في البيت الأخير مع أن الأحباش لم يكونوا هوداً ، حتى يصح افتراض اصطحابهم لأحبارهم ! والذي عندي أن هذه الأبيات مفتعلة في العصر الإسلامي .

إذا وضعنا أمام النظر كل هذه التحقيقات بان لنا أولاً : أن قصة مسير الأحباش إلى مكة بقصد هدم الكعبة دون غيره ليست جاهليّة ، وإنما تعود بأصل إلى الإسلام

ومن هنا نجد أن تعليل تعرض الأحباش للحجاز في طريقهم إلى فارس بأن القصد منه محاولة هدم الكعبة وصرف الناس عنها ليست إلا أسطورة نشأت بعد أن قام الإسلام وذاع وانتشر بين العرب واستقر في الشرق وارتفع شأن مكة وأصبحت الكعبة قبلة المسلمين . فعمل الرواة على أن يربطوا بين وجود هيكل النصارى في اليمن وبين حملة الأحباش على الحجاز في سبيلهم إلى فارس فكان لهم من ذلك قصة محبوكة . ومما لا ريب فيه أننا قد وضعنا اليد على مواضع الصنع في هذه القصة التي ترويها الكتب العربية ، وكشفنا عن الخطوط التاريخية التي استمد منها النسيج الأول الذي حيكت بعده بقية خيوط القصة كما تجيء في المصادر العربية . وهكذا تميز ممنا الجانب التاريخي من الجانب الأسطوري فيها ،

(١) ابن جرير الطبري طبعة دى غويه جـ١ ص ٩٢٢ س ٨
(٢) نولدكه في Geschichte der Pesser ، ص ١٨٨ هامش رقم ١
(٣) نفس المرجع
(٤) الطبري ، جـ٢ ص ١١١ وما بعده وسيرة ابن هشام . جـ١ ص ٤٣ — ٦١ وأخبار مكة للأزرقي ص ٨٦ — ١٠٢ وابن خلدون طبعة بولاق جـ ٢ ص ٦١ — ٦٢ والزمخشري في الكشاف طبع الهند ، جـ ٢ ص ١٦٣٢ والسيرة الحلبية جـ١ ص ٨١ و٨٢ و٨٣ طبعة مصر ١٢٨٠ وتاريخ الخميس طبع بولاق ، جـ ١ ص ٢١٢ — ٢١٦ وعلى وجه خاص ٢١٦ س ١٩ وابن دريد في الاشتقاق ص ١٠١ س ٣

(١) المرجع ذاته ، جـ ١ ص ٣١٥ والبرنس كايتاني في الحوليات الاسلامية ، جـ١ فقرة ١١٧ و١١٩

وانضحت ناحية خفية من نواحى تاريخ العرب فى الجاهلية[١]

ميلاد الرسول

ربط الكثير من مؤرخى العرب ميلاد الرسول (ص) بعام الفيل ليتخذوا من ذلك دليلاً آخر على نبوّة الرسول بأن عناية الله ردّت كيد الأحباش عن مكة تكريماً له إذ كانت أمه آمنة فى ذلك الحين حاملة به[٢]. والواقع أن نبوة الرسول تحمل فى ذاتها آيات صدقها ، فهى لا تحتاج لدليل خارجى يدعمها . وحياة الرسول تثبت أنه كان مخلصاً طيلة حياته ؛ وهذا وحده يردّ كل محاولة يراد بها التشكيك فى نبوته[٣]

ولما كانت حملة الأحباش التى عرفت بسفر الفيل جرت سنة ٥٤٠ ميلادية[٤] كما ثبت من التحقيقات التى كشفنا لك عنها من قبل ، فإن الصلة تبدو مفصومة بين عام الفيل وهى السنة التى كان فيها سفر الفيل وبين ميلاد الرسول (ص) ، فنحن نعرف أن محمداً عليه الصلاة والسلام ولد فى حدود سنة ٥٧٠ ميلادية كما حقق ذلك الباحثون[٥] . فإذن هنالك نحو ثلاثين سنة تفصل بين عام الفيل وميلاد الرسول . وبعض المؤرخين العرب يثبت هذا ، فمثلاً يقول البنوى : إن سفر الفيل حدث قبل ميلاد الرسول بنحو أربعين سنة[٦] ومحمد بن السائب الكلبى ينزل بهذه السنين إلى ثلاث وعشرين سنة[٧] . ونلاحظ أن خلفاء أبرهة حكموا اليمن ٣٩ سنة[٨] وأنه فى سنة ٥٧٠ ميلادية ذهبت قوات القدس لتخليص اليمن من الأحباش[٩] وهذا يجعل حكم أبرهة الذى أغار على الحجاز حوالى عام ٥٤٠م وهذا ما يؤيده عن طريق غير مباشر بعض المصادر العربية التى تقرر أن الرسول

(١) أنظر أثر ذلك فى التاريخ العربى الجاهلى ، فى تاريخ الاسلام ، ج ١ ص ٣٩٠ وما بعدها

(٢) الطبرى ، ج ١ ص ٩٦٧ — ٩٦٨

(٣) ليون كايتانى — الحوليات الاسلامية — المقدمة

(٤) نولدكه فى تاريخ القدس ، ص ٢٠٥ ، الهامش

(٥) Baussin de Percival فى Essai sur l'Histoire des Arabes ج ١ ص ٢٨٢ — ٢٨٣ و se Sacy فى 7ém de l'Academie مجلد XLVIII ص ٥٣٠

(٦) ليون كايتانى فى الحوليات ، ميلاد الرسول .

(٧) المرجع السابق الذكر توا ، ميلاد الرسول

(٨) نولدكه فى تاريخ الفرس ، ص ١٢٠ ، هامش رقم ٣

(٩) نفس المرجع .

ولد بعد خمسين سنة من استيلاء الأحباش على اليمن[١] وأنهم طردوا بعد عامين من ميلاد الرسول[٢] . وهذا كله إن أثبت شيئاً فإنما يثبت أن الصلة مفصومة بين ميلاد الرسول وعام الفيل وأن محمداً ولد بعد عام الفيل بثلاثين سنة تقريباً[٣]

ومن المهم أن نقول هنا إن هذه الحقيقة التاريخية برغم وضوحها ورغم ثبوت أن حملة الأحباش على الحجاز كانت فى حدود سنة ٥٤٠ ميلادية وأن ميلاد الرسول كان سنة ٥٧٠ ميلادية ، فإننا نجد معظم المشتغلين بالتاريخ الإسلامى يخطئون ، فيجعلون ميلاد الرسول مقروناً بعام الفيل . وربما كان لبعضهم العذر فى هذا الخطأ لجهلهم هذه التحقيقات المعروفة فى دوائر التاريخ فى العالم المتمدن ، ولكن ما عذر بعض الأساتذة الجامعيين الذين نجد فى مصنفاتهم جميع أصول هذه التحقيقات ، وبعد ذلك يخطئون ويقولون إن الرسول ولد فى عام الفيل[٤] ومهما يكن من شىء فالتاريخ يرفض كل محاولة يراد بها ربط ميلاد الرسول بعام الفيل كما أن التحقيقات التاريخية تبين أن الصلة مفصومة بين التاريخين بنحو ثلاثين سنة . ونرجو أن يكون فى هذا البحث تصحيح لما تجرى به أقلام الباحثين فى العالم العربى من أن رسول الله محمد بن عبد الله ولد عام الفيل .

(الاسكندرية) — اسماعيل أحمد أدهم
دكتور فى العلوم والفلسفة من موسكو
ودكتوراه فخرية فى الآداب من لينغراد وموسكو

(١) البيرو فى Chron ص ٤ سطر ٢٤

(٢) الأزرقى فى تاريخ مكة ، ليبزيغ ١٨٥٨ ، ص ٩٢ س ٢ وما بعده

(٣) Sprenger فى Zietschrift der Deutschen Iorgenlandischen Gesellschaft ج ١٣ ص ١٣٧ و ١٤٢

(٤) حسن ابراهيم حسن فى تاريخ الاسلام العباسى ، ج ١ ، فصل تعرض الأحباش لليمن ، وحربهم على عرب الحجاز ، وقابله بما يذكره عن مولد الرسول

محمـــد تيمور

الممثل والناقد والمؤلف المصري

للأستاذ زكي طليمات

[نص الكلمة التي ألقاها الأستاذ زكي طليمات مفتش شئون التمثيل بوزارة المعارف في الحفلة التي أقامتها جماعة أنصار التمثيل والسينما بدار الأوبرا الملكية مساء يوم الأربعاء الموافق ٢٨ فبراير ١٩٤٠ تكريماً لذكرى المرحوم محمد تيمور ، وذلك بمناسبة مرور عشرين عاما على وفاته]

إن الحديثَ عن تيمور لا تَخْلقُ جِدَّتهُ لمن نَمَّ بصداقة تيمور الراحل ، ومن قرأه في أشعاره وفي مسرحياته . وحديثُ اليوم حديثُ الوفاء لمن عَمِلَ إلى جانب تيمور للمسرح وللفن ، واتفق وإياه في المبدأ والفكرة العاملة . وحديثُ اليوم أيضاً هو درسُ الشباب ، الشبابِ الدارج الذي فاته أن يعرف تيمور أو أن يطَالعَهُ في كتبه الثلاثة

حينما لبى تيمورُ نِدَاءَ ربه منذُ عشرين عاماً ، وربِعت مصرُ بفقده، وانتظمت جنازته في شِبهِ موكبٍ قوي حافل - لم نشيعْ السريَّ ابنَ الجاهِ الواسع والحسب الأصيل ، لم نشيعْ الشاعرَ الملهمَ فحسب ، وإنما شيعنا رجل المسرح المصري الحق ، وكبير كُتَّابه ، وأخلص نصرائه

على هذا الاعتبار الذي يعلو على أي اعتبار آخر ، شيعنا محمد تيمور إلى مرقده الأخير ، ولما يتجاوز العقد الثالث من عمره . وليس في ذلك إرخاص لشباب غض ذَوَى قبل أوانه ، وخُلق رضي متواضع قلما تلمحُ مخايله في شباب الأعيان وأبناء الأرستقراطية التي تحسب أن النعم وقف على أبنائها ، ولا خفض لشأنِ البيانِ الذي كان تيمورُ من فرسانه ؛ وإنما إعلاء لشأنِ تلك الموهبةِ الفنية الخصبةِ التي أمدّت المسرح المصري ، وهو يرق أولى درجات نموِّه بكثير من مقومات كيانه بعد أن ركَّز فيه تيمور أعلاماً من العمل الباهر والجهاد الصادق

وما اجتمعنا اليوم إلا بنفس الدافع الذي دفع الناس من قبل إلى تشييع جنازة تيمور ...

اجتمعنا لنحيي ذكرى تيمور في جهاده للمسرح المصري : ممثلاً وكاتباً وناقداً .

وقد نجتمع غداً لنفس الدافع ، ولعين الغرض ، وسيحمل الجيل القادم شرف هذه الرسالة ليسلمها بدوره إلى الجيل الذي يليه . هذا أمر أعتقدُه وأومن به ، لأننا ، وقد شملتنا اليقظة القومية، لا بد من أن نمجد ذكرى من عملوا لهذه القومية.

لأننا ، وقد أخذنا بتدعيم أسباب مسرح مصري صحيح ، لا مناص من أن نشيد بذكر من جاهدوا في سبيله ، وأن ننتزع من النسيان تلك الوجوه الكريمة ، التي شقت أفقاً ، ومهدت طريقاً ، وأهوت بيدها تنشئ في جدار ! ...

تيمور والمسرح

أتحدث الآن عن ذلك الجيل الذي عاش فيه تيمور ، جيل الجهاد الأول من جانب الشباب المثقف لاستخلاص طابع مصري لفن التمثيل العربي ، ولإعلاء شأنه ، جيل الهواة الذين يرجع إليهم الفضل فيما انتهت إليه الحركة المسرحية اليوم

لئن قلت إن التمثيل كان قبلة تيمور في مختلف أدوار حياته ، فإني لا أقرر غير الواقع الذي شهد به كل من اتصل بتيمور فما كان تيمور المراهقُ الذي كان يتخذ من أبهاء قصور آبائه مسارح مرتجلة ، ومن شقيقيه ومني ومن خلصائه ممثلين لفرقة مزعومة ...

هـذا الجوَّاب الصغير لدور التمثيل في سن لا يحسُن فيها الذهاب إلى دور التمثيل، هذا المقلد (لسلامة حجازي) في إنشاده ، ما كان تيمور هذا ، إلا ذلك الشاب اليافع ، الذي أعجب به الجمهور بعد ذلك ممثلاً في حلقات السمر ، وفي حفلات الجمعيات التمثيلية ، ثم حياه ناقداً جريئاً ، ثم مجده مؤلفاً لمسرحيات مصرية طريفة هي الأولى من نوعها في العهد الذي عاش فيه تيمور

وإذا حاولنا أن نقيم صلةً بين هَوِية تيمور بالمسرح وبين نشأته وبيئته وتقاليد أسرته لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، ولانتهينا إلى أن الإنسان حقاً لا يستقيم إلا على محتوم قضائه ومكتوب سيرته . (فتيمور) سليل بيت عريق في الغنى والمجد وفي التقاليد التي تعتبر التمثيل رِجْساً من أعمال الشيطان . و(تيمور) ابن بيت عُرِف بالاشتغال بالأدب ، فعمته الشاعرة عائشة

التيمورية ، ووالده المؤرخ واللغوى المحقق أحمد تيمور باشا .

و (تيمور) اجتاز مراحل الدراسة فى مصر ، وسافر إلى أوربا لدراسة الحقوق ، ولم يكن بينه وبين نيل إجازته شىء ، لولا أن قطعت عليه الحرب العالمية الأخيرة سير دراسته ...

ومع كل هذا فقد اعتلى تيمور المسرح ممثلاً قبل عودته من أوربا وبعد عودته منها وعلى الرغم من تبرم أهله وعشيرته بفن التمثيل ...

اعتلى المسرح وهو يشغل وظيفة التشريفى لدى عظمة السلطان حسين فى قصر عابدين ؛ فضرب بذلك المثل الحى على أن التمثيل هوية شريفة جديرة بأن يعمل فيها أكبر الناس حمولة من العلم والجاه والمركز الاجتماعى الممتاز . وهذا المثل فيه ما فيه من دلالة على أن المسرح يجب أن يكون مما يُعنى به الشباب المتعلم والشباب الكريم المحتد . وأن المسرح ليس بالأرض التى قضى عليها بألا تحمل إلا الأغرار ومن تنكبت بهم سبل العيش ومن خلت مواهبهم إلا من الجرأة والصوت الجهير ! ...

تيمور الممثل

ترأس (تيمور) أكثر من هيئة تمثيلية ، وعمل مخرجاً وممثلاً فيها . بيد أن حياته فى فن المثل ليست بالحياة الطويلة ، ولكنها على قصرها رسمت فن المثل فى نسقه العالى ، وأقامت مدرسة لفن الإلقاء والتجويد لم تكن معروفة فى ذلك الوقت ، لأنها مدرسة كانت تقوم على الاعتدال والاتزان وصدق التعبير وجمال التأثير . جمع تيمور فى إلقائه قوة التصور والإدراك إلى قوة الأداء والتعبير فى تلك البساطة الفنية والحذق الباهر الذى يعمل على إرخاص الحواشى وإعلاء جوهر الكلام ، والذى يحمل التأثير إلى قلوب المستمعين ، لا إلى آذانهم !

هكذا شق تيمور الفجر الأول لما يجب أن يكون عليه الإلقاء والتمثيل من جانب المثل والملقى

إلا أن الحركة التمثيلية لم تستفد الإفادة كلها من مواهب تيمور المثل ؛ لأنه لم يكن فى وسع تيمور — وظروف بيئته على ما أجملنا وصفه — أن يحترف التمثيل فى الفرق العاملة

ويقينى أن تيمور لو احترف التمثيل لما أصاب فيه خيراً ، ولا اقتصرت مواهبه على تأدية بعض الأدوار ، ولا انصرف بذلك عما هو أهم وأجدى ، ولتبرم فى النهاية بالمسرح ومحترفيه

تيمور المؤرخ والناقد

إذا صح أن المسرح المصرى فقد فى إمساك تيمور عن احتراف التمثيل ممثلاً قديراً كان فى وسعه أن يرقى بفن المثل إلى الدرج المرغوب فيه ، إذا صح هذا فإن المسرح لم يفقد فى تيمور ناقداً له ومؤرخاً لعصر من عصوره

إن ما كتبه تيمور ناقداً ومؤرخاً للمسرح المصرى متفرد فى بابه بالدقة والصراحة ، متفرّد فى ابتعاده عن التشيع وتلمس العيوب وحرق الباخر تحت ذقون زعماء المسرح المصرى

كان تيمور لا يكتب لشهوة الكلام ، أو للتظاهر بأنه حذق المسرح وفنونه ، ولا لأى غرض من الأغراض التى تدفع بعض نقاد المسرح إلى امتشاق القلم وخوض معارك الجدل ، وإنما كان يكتب لينزل الأشياء منازلها الصحيحة ، وليخط للنقد المسرحى طريقاً ، وليقيم له عرفاً ، وليذيع اسم المسرح فى كل مكان ، ثم ليرسم للعاملين فى المسرح الطرق والوسائل التى ترق بهم وبفنهم نحو الكمال المنشود . ولعل تيمور أول من كتب منادياً بوجوب استقلال المسرح المصرى عن المسرح الغربى برواياته وتصانيفه ، وبوسائل تأدية ممثليه

لو قال تيمور هذا وسكت لقلنا إنه إنما يزف نظريات استلهمها من تاريخ المسرح الغربى وتطوره ، وهو المسرح الذى نهل منه تيمور أعذب الموارد

تيمور المؤلف

ولكن تيمور قرن القول بالعمل والنظر بالتنفيذ ، فألف للمسرح مسرحيات تمتاز بطابع مصرى أصيل ، هذبت حواشيه وصقلت صميمه مطالعات بعيدة وتأملات واسعة فى نفائس الأدب المسرحى العام ، امتزجت بوفرة الاستعداد وخصب الموهبة وروح الشاعر

كتب تيمور ثلاث مسرحيات (العصفور فى القفص) ، و (عبد الستار) و (الهاوية) كما وضع مسرحية (العشرة الطيبة) ، والجديد فى هذه الروايات أنها عالجت موضوعات منتزعة من صميم الحياة المصرية والشرقية فى أسلوب أخذ نصيبه الوافر من طرافة الحوار ، ووضوح الفكرة ، وتغلغل هابطاً فى أعماق النفس البشرية ليسجل منها أصدق الخلجات وأخلص المشاعر

والجديد فى هذه الروايات أيضاً ، أنها كتبت باللغة العامية ، وهذا موضع العجب ، لأن تيمور كان يملك ناصية البيان العربى وله شعر رصين ينم عن تعمق فى دراسة اللغة ، والأخذ ببيان الأقدمين .

وكان التأليف للمسرح من جانب من هم على شاكلة تيمور فى ثقافته وأدبه إنما يجرى باللغة العربية الفصحى

تيمور واللغة العامية

يفسر هذا أن تيمور كان يعتقد — كما سبق أن جاهر بذلك فى مقالات عديدة — بأن لغة المسرح يجب أن تكون غير لغة المقال والأدب ، وأنه يجب مخاطبة الجمهور المستمع باللغة التى يفهمها ويحذقها ، أيًّا كانت لهجة هذه اللغة ونصيبها من البيان ، وأنه فى سبيل ذلك لا ضير على المؤلف للمسرح أن يكتب باللغة العامية ما دامت هـذه اللغة فى متناول كل الأذهان ومختلف الطبقات ، وأن لا ضير من إهمال جانب العربية فى الكتابة للمسرح حتى يجتاز التمثيل المصرى المرحلة الأولى من مراحل تكوينه ، وهى مرحلة نشره وإذاعته بين الجماهير

كان تيمور أول من سن هذه الشرعة الفنية فى وقت كانت تصدر فيه أغلب المسرحيات فى أسلوب عربى لو اهتم كاتبه بمقتضيات الفن فى نسج الرواية اهتمامه بتنميق اللفظ وإشراق البيان ، لكان للمسرح المصرى اليوم روايات عربيـة مقطوع بصحتها الأدبية والفنية معاً

تيمور والمصرية

وفوق هذا فقد كانت تعمُر قلب تيمور فكرة « المصرية » وهى فكرة ترى إلى أن يكون الأدب المصرى مستقلاً عن الأدب العربى ، لا فى مناحى التفكير فحسب ، ولكن فى العبارة وأسلوبها إذا لزم الأمر

وهـذه « المصرية » تجلت فى كل ما كتبه تيمور قصاصاً وشاعراً .

والمصرية اليوم فكرة قد لا تلقى ترحيباً لدى بعض الرؤوس المفكرة ، ولها ما لها عند البعض ، وعليها ما عليها عند البعض الآخر ، إلا أننى أقول ـ وقد أخذت عن تيمور الكثير من ثقافتى الفنية والأدبية ـ إنه ستكون للمصرية، ولا شك، دولة فى القريب العاجل ما دمنا قد استكملنا مظاهر استقلالنا السياسى ، وما دمنا قد استشعرنا العزة القومية ، وأخذنا بأسباب نهضة ترمى فى الصميم إلى استقلال الفكر والأسلوب فى جميع نواحى الحياة الاجتماعية

ولم يك غريباً بعد أن أصدر تيمور مسرحياته باللغة العامية وهى تعالج موضوعات مصرية، لم يك غريباً أن يقيم مدرسة جديدة فى الأدب المصرى ، والأدب العربى المستحدث ، اجتذبت نحوها مريدين وأنصاراً

وقد ننسى أن تيمور كان ممثلاً فذاً ، وكان ناقداً جريئاً ، وأنه أضاف جديداً إلى دولة الشعر والبيان ، وأنه دبّج للاصلاح الاجتماعى مقالات عديدة . قد ننسى كل هذا ، ولكننا لا نستطيع أن ننسى أن تيمور عمل للقومية المصرية الحقة بتأليف مسرحيات جديرة بالخلود لوفائها بشرائط الفن الرفيع ، مسرحيات تعتبر بحق من أحسن ما أخرجته الأقلام المصرية الدائبة على أن تجعل المسرح شقة من الأدب العربى المستحدث

كذلك لا نستطيع نسيان شىء آخر ، وهو نزول شاب عريق فى الحسب والجاه ، إلى العمل فى حقل جديد ، فى فن وافد حديث العهد بفنون هذه البلاد وتقاليدها ، ترمقه الأكثرية الغالبة من الناس بعين ملؤها الشك والازدراء ...

لا ننسى أن تيمور كان سبباً فى أن أخذ الناس يحسنون الظن بهذا الفن . وشد ما يحتاج هذا الفن إلى حسن ظن الناس به ! وأنه عمل له مجاهداً فدائياً بقدر ما وسعته بيئته وزمانه ، وأنه لم يلق قلم الجهاد حتى الساعة الأخيرة ، وبالها من ساعة سقطت فيها زهرة ندية بقطر الشباب ، تتنفس عن عطر فاغم ، بعد أن جادت برواثها وبنورها وبعطرها لتبقى منابت الورد موارد الإلهام وحصاد الخيال ومباعث الحنان ...

أيها السادة :

إن الذى نحتفل اليوم بتمجيد ذكراه ، شاب قضى فى ميعة العمر ونضوج الصبا ... فحيوا معى العروس المختضر ، وأرسلوا البسمات صافية ، لأن الدموع على الشباب الراحل ضرب من السخرية ، ولون شائع من الحزن الرخيص ...

زكى طليمات



مجلس ظريف

شهدت من كثب ذلك المجلس فى مقهى ، ومن عجب أن تقع عيناى على مجلس ظريف فى مثل ذلك المكان . أقول ذلك وإن عجب القارئ لقولى ؛ على أنى أرجو منه المعذرة ، فأنا أكره المقاهى حتى ما أطيق الجلوس فيها إلا لضرورة . ولئن أنكرت وجود مجلس ظريف فى أحدها فرد ذلك إلى جهلى بها لا ريب فى ذلك ... ولست أدرى لم أسأل نفسى أبداً كلما مررت بمقهى : أيتفرج الجالسون فيه على السابلة ، أم هم أنفسهم صنف من المعروضات يتفرج عليهم المارة فيما يتفرجون عليه من معروضات الشارع ؟ أما عن نفسى فأنا أتفرج دائماً على هؤلاء الجلوس ضاحكا ؛ وكم يذهب خيالى فى تصورهم لى مذاهب لن أطاوع قلمى فى ذكرها

ذهبت فى المساء أطلب الهدوء فى أحد أطراف المدينة فلت إلى مقهى هناك كاد يكون خالياً ، وقد اجتذبنى ما بدا لى من هدوئه . وجلست وحدى فى ركن من أركانه أمنى النفس بجلسة تعيد لى خيال منزلى فى القرية ؛ ولكنى لم أكد أستشعر الهدوء حتى أقبل جماعة لم أشك أنهم من طالبى الهدوء مثلى . وآية ذلك أنهم كانوا يضحكون فى جلبة شديدة ، ويقطع بعضهم على بعض الحديث قبل أن يأخذوا أماكنهم ؛ ورأيتهم جلسوا فى نصف دائرة أمام واحد منهم جعلوا له الصدارة ، وقد دل مظهره على أنه جدير بهذه الصدارة . والحق لقد كان فى مجموع شكله يخيل إلى أنه نكتة تمثلت بشراً !

وبدأ الحديث أو قل استمر ، فهم لم يمسكوا منذ رأيتهم مقبلين . وكأنما اعتزم هؤلاء أن يضحكوا أكثر ما يستطيعون من الضحك كما لو كانوا واثقين أن هذه آخر فرصة للضحك فى حياتهم !

كانوا إلا واحداً أو اثنين قد جاوزوا الأربعين بقليل كما تراءى لى . أما كبيرهم فأحسبه كان يحبو للخمسين من عمره المبارك ، وكانوا جميعاً يشتركون فى صفة واحدة ؛ ذلك أن عليهم طابع الديوان ، فما تلبث العين — ولو بغير منظار — أن ترى فيهم نفراً من هؤلاء الذين يتربعون أمام المكاتب أثناء النهار وقد ارتسمت على وجوههم أمارات الجاه واتضحت دلائل الحكومة

ودار حديثهم أول ما دار حول « عزومة » كانوا خارجين منها لتوهم ، فلم أسمع إلا النكتة تتلو النكتة . ولقد غابت عنى لسوء حظى أكثر هاتيك النكات فيما كان ينطلق من أفواههم من قهقهات عالية متواصلة ! ورأيتهم يرسلون ضحكاتهم العريضة قبل النكتة وبعدها ، فما تنفرج شفتا زعيمهم حتى تنبعث الضحكات مجلجلة من بين شفاههم ، وإن لم يسمعوا ما يقول . فلقد كان يضحك الواحد منهم أحياناً ملء شدقيه ، ثم يميل على جاره يسأله : ماذا كانت النكتة ؟ وكانت تسمح بعض النكات ، ولكن الضحك يظل على حاله من الشدة ، حتى لا أدرى أيحمل هنا على المجاملة أم أن سخف النكتة إذا اشتد قد يكون فى ذاته باعثاً من بواعث الضحك منها ؟ على أننى رأيت للمجاملة هنا شأناً كبيراً ، فكل من هؤلاء يضحك لكى يضحك لقوله الآخرون بدورهم ، وإن جاوز فى السخف أبعد حدوده ...

ومن غريب أمر هؤلاء الظرفاء أنهم لم يتورعوا عن ذكر اسم مضيفهم المسكين أكثر من مرة ، ولم يتركوا شيئاً مما قدم لهم من الطعام ، ولا مما رأوه من متاع بيته إلا جعلوه موضعاً لظرفهم وقلبوه على أوضاعه جميعاً ، فهذا زفت مجسم سمى « بالكفتة » ؛ وهذه « الفتة » كان ينقص أن تقدم فى طست الغسيل ؛ وهذا الصنف جىء به من « السمط » ، وهذا الخبز سيسأل عن تقديمه لهم بين يدى الله ، أو ذلك البرتقال من « سوق الكانتو » وتلك الأطباق والملاعق لا شك وقف عزيز من أوقاف المرحوم جده ... وإنه إذا أراد أن ينتقم غداً من الرئيس فلان فليس أبلغ فى الانتقام منه من أن يدعوه إلى مثل هذه « الأكلة » ...

وليتهم استمروا فيما هم فيه ، ولم يخرجوا منه إلى استعراض الكثير غيره من أعراض الناس فى مجلسهم الظريف ، وللحديث شجون كما يقولون ، وليس يبالى هؤلاء القوم فى ساعة « حظهم » إلى من يتطرق الحديث ، ولا أى موضع يتناول

وشبعت نفسى مما طلبت من هدوء ، فانصرفت مسروراً برؤيتى هذا المجلس الظريف ؛ وأنا أقول فى نفسى كم يوجد من أشباه هذا المجلس الظريف ونظائره فى الطبقات الأخرى من المجتمع وفى غير أركان المقاهى من النواحى ، فما تلك المجالس إلا براهين قاطعة على أننا قد بدأنا نأخذ أنفسنا بالجد من الأمور ، وأننا إذا لهونا فإننا نحسن اللهو كما نحسن الجد فى هذه الحياة .

« عين »

ذكرى أخي الهراوي

للأستاذ على الجندى

قبل وفاة صديقى المرحوم الهراوى بشهر ، أرسل إلىَّ بطاقة لطيفة حمّلها (ألف قبلة وتحية) ورجانى فيها أن أزوره بمقر وظيفته ليحادثنى فى شأن من الشئون الأدبية . وقد عدتنى عواد عن تلبية هذه الدعوة فى حينها ، ثم ذهبت بعد ذلك إلى دار الكتب فسألت عنه ، فقال لى البواب : « تعيش » لقد توفى أمس إلى رحمة الله !

كانت الصدمة عنيفة أذهلتنى عن كل شىء حتى عن واجب العزاء لأسرته ، وحاولت أن أرثيه فلم أستطع ، فقد غال الحزن بيانى وغشى على مشاعرى ، وكان أنكى علىَّ من ذلك ما تهامس به بعض الناس : من أنى أخللت بواجب الإخاء ! كأنهم لا يدرون — عفا الله عنهم — أن من الألم ما يحمى صاحبه الكلام كما يحميه الطعام !

والآن وقد انكسر الحزن ورسب سعيره فى الأعماق ، أهدى إلى روح صديقى فى مسراه العلوى هذه الطاقة الشعرية مستنزلاً عليه الرحمة والرضوان العميم :

جهلَ العاذلونَ فيك مُصابى   فأطالوا مَلامتى وعتابى
وأذاعوا : أنى بخلتُ بدمعى   ورثائى على أبرِّ الصِّحابِ
وعزائى عِلمى بأنك تدرى   ما أعانى من حُرقة وا كتئاب
رُبَّ باك يذرى دموع التماسيـ   ـح من الموجعات خالى الوطاب
وجليد يفترُّ عن سنٍّ جذلا   ن طوَى كشحه على الأوصاب
وخلىِّ الفؤاد من لاعج الحبِّ (م) يُري صابياً وليس بصابى
أعذرُ الناسِ من دهتْه الرزايا   ونَهتْ دمعَه عن التَّسكاب
فهنيئاً لهم بكوْا فاستراحوا   وكتمت الجوى ، فطال عذابى
أيها اللائمون عَدُّوا عن اللو   م وُقيتمْ ـ على الإساءة ـ ما بى
لو بكم ما بنا ، وبانَ عليكم   لَلبِستمْ به سوادَ الغراب
لا يُحسُّ الآلام من دينه الّلهـ   ـو ولا يدْركُ الصبى بالتصابى
كثرت بيننا الجِياد ولكن   قصبُ السبق للمذاكى العِراب
وحمامُ الرياض يبكى فنشجَى   حين تبكى مطوّقاتُ الرّقاب
كيف ينسى الوداد مثْر من المجـ   ـد رفيع الذُّرا كريم النِّصاب
مُعْرقٌ فى الوفاء يجرى على العر   ق ويسرى فى بُلجة الأحساب
لا وربى لم أنقض العهد يوماً   لا ولا بتُّ سالياً أحبابى
أنا أكسوهم المدائح أحيا   ء ، وأروِى صداهمو فى التراب
وأصوغ الرثاء فيهم رياحيـ   ـن تمجّ الشّذا على الأحقاب

* * *

يا أخى فى الوداد ، والودُّ أبقى   أثراً من علائق الأنساب
ومُعينى على نوائب دهر   أنا منها ما بين ظفر وناب
ومَنارى إذا دجا الشك حولى   وتنكبت عن طريق الصواب
وصفيى ، وجُلُّ من أصطفيهم   صُورُ الإنس فى طباع الذئاب
كنت أخشى طوارق السوء إلا   طارق الموت لم يقع فى حسابى
أين أيامنا نواعم كالغيـــد تخايلْنَ فى رقيق الثياب
بين صبح مُفضّض ، وأصيل   شرِق الأفق بالنُّضار المذاب
نسجتها يد الزمان من البهـ   ـجة والأنس والأمانى العِذاب
فهى من عمره الربيعُ المُوشّى   وهى من عمرنا لُباب اللُباب
وليال كأنها من سَناها   ومضات الأحداق خلف النقاب
نتساقَى بها الودادَ سُلافاً   أين منها سلافة الأعناب
كيف مرّت بنا عِجالاً فكانت   كحباب طفا على الأكواب
أو كطيف الحبيب يدنو به الغمـ   ـض وتُقصيه رقصةُ الأهداب
خُلَسٌ من بشاشة العيش ولّتْ   تستحث الخطا لغير إياب
آه لو سامنى زمانىَ فيها   بشبابى ، شريْتها بشبابى

* * *

فجعتنا المنون بالشاعر الملـ   ـهم آى البيانِ والإعراب
بالأديب المِفنّ من يسكب المعـ   ـنى رحيقاً فى المنطق الخلّاب
يُحيل الطروس روض جَنان   مُونِقاً للعيون والألبـــاب
بسجيح الطبع الرقيق الحوا   شى وسرىّ الخُلْق النقىّ الثياب
يؤدّ حقّ الأخلاّء فى النا   دى وحق الإله فى المحراب
جامع الخلّتين : ظرف الألبا   ء ، ونُسْك المُطهّر الأوّاب

* * *

يا لذكرى هاجت بلابل صدرى   وأعارتْ قلبى جناحىْ عُقاب
قَلِقٌ تحتىَ الوسادُ كأنى   أتنزّى على رؤوس الحراب
بين ليلْين : من دجى وهموم   ناهضات إلىّ من كل باب
مَثلاً لى الخضمّ[1] يغشاه موجٌ   تحت موج مجلل بسحاب

(١) نظم للآية الكريمة « أو كبحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » وشتان بين كلام الخالق والمخلوق

٣ – لقب السفاح

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وعدت فى مقالى الثانى أن أبين للأستاذ العبادى كيف اختلفت الروايات فى لقب السفاح بين أبى العباس وعمه عبد الله ابن على ؛ وقد سلك الأستاذ العبادى فى اختلاف هذه الروايات مسلكاً ليس من الإنصاف العلمى فى شىء ، فجعل تلقيب أبى العباس بالسفاح من رواية المؤرخين الأدباء كالجاحظ وابن قتيبة والأصفهانى ولهذا لا يوثق بها عنده ، وإنما يوثق بالرواية التاريخية القديمة التى سكتت عن تلقيب أبى العباس بهذا اللقب ، كرواية ابن سعد وابن عبد الحكم وغيرهما . ويؤخذ بما رواه غير أولئك المؤرخين الأدباء من تلقيب عبد الله بن على بالسفاح ، وإنما كان هذا ليس من الإنصاف العلمى فى شىء ، لأن سكوت أولئك المؤرخين عن تلقيب أبى العباس بالسفاح لا يصح أن يطعن به فى رواية من لقبه به ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ ، وهذه قاعدة مشهورة عندنا معشر الأزهريين ، ولا يمكن أن يجادل فيها الأستاذ العبادى ، وإنما يصح الطعن برواية أولئك المؤرخين إذا وردت بنفى ذلك اللقب عن أبى العباس ، وحينئذ يكون ممنا نافٍ ومثبت ، وقد اختلف علماء الأصول فى تقديم أحدهما على الآخر . على أن الأستاذ العبادى لا يمكن أن يدعى أنه استوعب الرواية التاريخية القديمة كلها فى ذلك ، وقد فاته من هذه الرواية رواية أبى الحسن المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، فقد جاء فى كتابه « مروج الذهب » تلقيب أبى العباس بالسفاح ، والمسعودى مؤرخ مشهور ، وقد كان معاصراً للطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ وهو ممن عده الأستاذ العبادى فى أصحاب الرواية التاريخية القديمة فيكون المسعودى من أصحابها أيضاً ، وسيجد الأستاذ العبادى بعد هذا كله أنه لا تعارض بين هذه الروايات ، وأننا لسنا فى حاجة إلى إنكار بعضها أو ترجيحه على الآخر

وقد أراد الأستاذ محمود شاكر أن يسلك هذا الطريق فى الجمع بين هذه الروايات المختلفة ، فذكر أن قول اليعقوبى (عبد الله بن على الأصغر وهو السفاح) منقول من ابن سعد فى طبقاته حين ذكر أولاد على (عبد الله بن على الأكبر وعبد الله بن على الأصغر السفاح الذى خرج بالشام) ، ولا يريد ابن سعد بذلك التلقيب كما يرى من اليعقوبى ، وإنما ذلك صفة كالسفاك والقتال ، وبهذا لا يكون السفاح لقباً لعبد الله بن على ، وإنما يكون لقباً لابن أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد بن على ، وقد كان يسمى عبد الله الأصغر أيضاً ، كما كان أخوه أبو جعفر يسمى عبد الله الأكبر . ثم ذكر الأستاذ محمود أن أبا جعفر قد لقبه أبوه بالمنصور فيما يعلم ، فلا غرو أن يكون أبو العباس قد لقبه أبوه بالسفاح كما لقب أخاه بالمنصور

ولما قرأت هذا للأستاذ محمود سألته عما يعتمد عليه فى إسناد تلقيب أبى جعفر وأبى العباس بالمنصور والسفاح إلى أبيهما محمد ابن على ، فلم أجد عنده ما يعتمد عليه فى ذلك . وقد بحثت بنفسى لعلى أجد ما يؤيده فيه ، فلم أجد إلا ما ذكره صاحب العقد الفريد ، من أن محمد بن على ولد له من امرأته الحارثية ولدان سمى كل واحد منهما عبد الله ، وكنى الأكبر أبا العباس ، والأصغر

كلما طار فى السماء شهاب ... طار قلبى وَثْباً وراء الشهاب
أوذ كالبرق فى الدُّجنَّة(١) ناراً ... شب نار الأحزان ملء إهابى
تُسعد الذكرياتُ أهلها، وأَلقى ... ذكرياتى محطِّم الأعصاب

* * *

ياصديق لبيت دعوة « رضوا ... ن » وخلَّفتنى كَحرَّ المصاب
لم تزوِّد أخاك بالنظرة العجـ ... لى على وَشْك نيةٍ واغتراب
ووداع الأحباب فن من السلـ ... وى وعون على احتمال الغياب
ليت آذنتَ بالفراق ، فكنَّا ... ننثر الدمع فى طريق الركاب
كذَبَ الشعر ما لمن حان عِلمٌ ... بالذى سجلتْه «أمُّ الكتاب»
إن من مِنة الإلٰه علينا ... أن توارتْ أسرارنا بالحجاب
لو درى الناس ما تستَّر عنهم ... قعدوا عن تناول الأسباب
لمع الغيب للظماء سراباً ... ضلَّ صاد يجرى وراء السراب
روِّض الغيث قبر من كان روضاً ... حالياً بالعلوم والآداب
بان عنا ، فبان كلُّ جميل ... فعزاء للآل والأصحاب

على الجندى

(١) الدجنة : السحاب المطبق تطبيقا

أبا جعفر[1] ولم يذكر أنه لقبهما بذينك اللقبين ، بل الظاهر مما سننقله فيما يأتي عن صبح الأعشى أن أبا جعفر تلقب بالمنصور بعد انتقال الأمر إليه من أخيه أبي العباس

والرأى عندى أن أبا العباس لم يلقبه أبوه بهذا اللقب قبل أن تقوم دولتهم ، ولم يلقب هو نفسه به بعد أن صار إليه الأمر ، لأن مثل هذا اللقب لا يتفق مع الألقاب الإسلامية التى عرف بها الأمراء قبل أبي العباس وبعده ، وإنما هو لقب لصق به لصوقاً ، وأطلقه عليه الناس وكثير من المؤرخين ، لوصفه نفسه به فى خطبته عند ما بايعه الناس ، فقد ذكر الطبرى أنه لما بويع صعد المنبر فقال : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام تكرمة ، وشرفه وعظمه ، واختاره لنا وأيده بنا ، إلى أن قال مخاطباً أهل الكوفة : وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المبير

وقديماً لقب العرب كثيراً من الشعراء بمثل ما لقب به أبو العباس ، فلقبوا عائذ بن محصن بن ثعلبة العبدى بالمثقب لقوله :

رددن تحية وكنن أخرى وثقبن الوصاوص للعيون[2]

ولقبوا عمرو بن سعد بالمرقش الأكبر لقوله :

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

وكذلك كثير من الشعراء غيرهما

وإذن يكون لقب السفاح فى أصله وصفاً بالنسبة إلى أبي العباس ، كما كان فى أصله وصفاً بالنسبة إلى عمه عبد الله ابن على ، ثم اشتهر به أبو العباس عند بعض المؤرخين ، كما اشتهر به عبد الله بن على عند بعض آخر منهم ، ولكل منهم فى ذلك رأيه واختياره ، وليس فيه شيء من الغلط والاشتباه الذى يدعيه الأستاذ العبادى

وعلى هذا لا يكون لقب السفاح هو اللقب الحقيقى الذى اختاره لنفسه أبو العباس ، وإنما هو لقب غلب عليه عند المؤرخين بذلك السبب السابق ، حتى أنسى الناس لقبه الحقيقى الذى اختاره لنفسه بعد أن صار إليه الأمر ، بل دعا هذا إلى عدم الاهتداء إلى لقبه الحقيقى بيقين ، وإلى ذلك الخلاف الذى سنذكره فيه ، ولكنه مع هذا هو اللقب الذى يصح أن يضعه لنفسه مثل أبي العباس ، ويتلاءم مع ألقاب من أتى بعده من العباسيين .

قال الخطيب البغدادي : عبد الله أمير المؤمنين السفاح بن محمد ابن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، يكنى أبا العباس ، ويقال له أيضاً المرتضى والقائم ، ثم قال : أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق ، أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق ، حدثنا محمد بن أحمد بن البراء قال : أبو العباس المرتضى والقائم عبد الله بن محمد الإمام بن على السجاد ابن عبد الله الحبر ابن عباس ذى الرأى ابن عبد المطلب شيبة الحمد .

وذكر القلقشندى أن خلفاء بنى أمية لم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة ، وأن ذلك ابتدئ بابتداء الدولة العباسية ، فتلقب إبراهيم بن محمد حين أخذت البيعة له بالإمام ، وأن الخلف وقع فى لقب السفاح فقيل القائم ، وقيل المهتدى ، وقيل المرتضى ، ثم تلقب أخوه بعده بالمنصور ، واستقرت الألقاب جارية على خلفائهم كذلك إلى أن ولى الخلافة أبو إسحاق إبراهيم بن الرشيد بعد أخيه المأمون ، فتلقب بالمعتصم بالله ، فكان أول من أضيف فى لقبه من الخلفاء اسم الله ، وجرى الأمر على ذلك فيما بعده من الخلفاء

وفى هاتين الروايتين وخصوصاً الأخيرة من العناية بتحقيق تلك الألقاب ما يجعلنا نثق بهما ، ونطمئن إليهما ، وفيهما لا يدخل لقب السفاح فيما قيل إنه لقب أبي العباس ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه فيه ، وقد جاء بعد أبي العباس من تلقب بالقائم بأمر الله ، ومن تلقب بالمهتدى بالله ، ولم يتلقب أحد بالمرتضى بعده ، فلعله كان اللقب الذى اختاره لنفسه ، على أن ظاهر رواية الخطيب البغدادى أنه كان يقال له المرتضى والقائم معاً

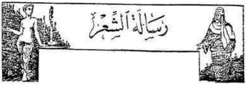
هذا ولا يفوتنا فى ختام كلامنا أن نبين حقيقة ما جاء فى تاريخ ابن العبرى عن السفاح ، من أنه كان رجلاً طويلاً أبيض اللون ، حسن الوجه ، يكره الدماء ، ويحامى على أهل البيت ، فإن هذا لا يراد منه إلا كراهته لدماء أهل البيت وحدهم ، بدليل ما قدمنا من أمره فى دماء غيرهم ؛ على أن العبرى يقيس فى ذلك أمره بأمر من جاء بعده من العباسيين .

عبد المتعال الصعيدى

---

(١) هذا يخالف ما سبق من أن الأصغر هو أبو العباس ، ويخالف المعروف أيضاً من أن أم المنصور كانت أم ولد بربرية يقال لها سلامة .

(٢) الوصاوص : براقع صغار تلبسها الفتيات



البعث . . .

للدكتور ابراهيم ناجى

يا جمالاً وجلالاً يتدفَّقْ ... رجع البلبل أم عاد الربيعْ !
بهر النــور عيونى فترفَّقْ ... حين تدنو إننى لا أستطيعْ !

* * *

أيها الورد الذى طاف بنا ... أيها الطلُّ الذى بَلَّ الظما
لا أراكَ الله حالى وأنا ... أطأُ الشوكَ ويغزونى الظما

* * *

يا أمانىَّ وحبي وخيالى ... لا تضيِّع لحظة فالعمر ضاعْ
لا أراك الله حالى والليالى ... كاسفات ليس فيهن شُعاعْ !

* * *

قد بلوتُ الويل فيها لا بَلَوتا ... وأنا أبداً يومى بالمَساء
وعرفتُ الضيقَ ضِيقَ القلب حتى ... لم أجد فى الكون ثقباً من رجاء !

* * *

لا وربى ليس للدنيا ختامْ ... حين يغدو البعثُ نُجوى من حبيب
حين يستيقظ قلبٌ من منامْ ... والمنادى أنت! والحب المجيب !

مطارف الربيع

[إلى الصاخبين دائماً على الأيام المرة القاسية]

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

ما لهـذا الرَّوضِ ظمآنا ؟ ... ما لهـذا الزَّهرِ نعسانا ؟
ما لتلك الأرض قد لبست ... من نسيج الموتِ أكفانا
ما لهـذا النَّجمِ مُرتقبا ... ومَضاتِ البرقِ حَيْرانا
ما لقرص الشمس مكتئبا ... عابسَ الألحاظِ غضبانا
ما لهمسِ الريح منطلقا ... مثلَ عَزفِ الجن مِرْنانا
ما لتلك الأرضِ ثائرةً ... مثلما تسمعُ بُركانا
ما لهـذا الطفلِ منسربا ... تحت جنْح الليلِ عُرْيانا
يتشكَّى البردَ آونةً ... ويعانى الجوعَ أحيانا ؟

* * *

الشِّــتاء المُرُّ فارقَنا ... والربيعُ الحـلوُ واتانا
مِطْرَفٌ وشّاهُ صانعُه ... وحباهُ الحسنَ ألوانا
ما لتلك الأرضِ فاتنةً ... ما لهـذا الروض سكرانا
ما لهـذا الزّهرِ مؤتلقا ... يَنْفحُ الأرواحَ رَيْحانا
ما لهـذا الطيرِ مُنطلقا ... يمــلأُ الأنحاء ألحانا
ما لهـذا النُّور منسكبا ... قد أصارَ الكونَ غَرقانا
ما لقرص الشمسِ ملتهبا ... ضاحكَ الألحاظ فتّانا
ما لهـذا الطفلِ مُنْسربا ... فى المروج الُخضْرِ جَذْلانا
يتمــنَّى فى خمائلها ... لو قضى الأيامَ وَسنانا ؟!

* * *

نرتجى الأيامَ صافيــةً ... آهِ لَوْ صَافَيْنَ إنسانا !
قُلْ لمن ضاقتْ مسالكهُ ... بالليـــالى حَسْبُكَ الآنا
الشـــتاء الجْهْمُ يعقبه ... ألربيعُ الطَّلْقُ مُزْدانا

أناشيدي ! . . .

للأديب محمود السيد شعبان

هُنا دُنيــا أناشيدى ! ... فَعِشْ يا قَلْبُ للذِّكرَى
بنَيْناها كما شــاءتْ ... لَنا أوْهامُنا السَّكْرَى !
وَصُغْناها مِنَ الأحْلا ... مِ وَالإلهامِ أَلْحَانَا . . .
فَهَيَّا نَلْقَ فيها سَا ... عَــةً يا قَلْبُ سَلْوَانا
وَنَتْرُكُ هَــذِهِ الأشْجَا ... نَ فى دُنيا الأَسَى حَيْرَى !

وَتَمْــلأُ بالرِّضى وَالبِشْـ ... ـرِ والأفْراحِ دُنيــانا

***

ألاَ يا رَبَّةَ الألحــا ... نِ مَنْ غَنَّاكِ ألحاني ؟!
وَمَنْ يا فِتْنَــةَ الدُّنيا ... سَقاكِ السِّحْرَ مِنْ حاني ؟!
أنا الشادِي ... وَأنتِ صَدَى ... أغاريدِي وَأنفاسي !
إليْكِ قدْ اهْتَدَى وَهْمِي ... وَلَـكِنْ ضَلَّ إحْساسي !
كِلانا يا هُدَى رُوحِي ... نَزِيلُ العَالَمِ الفانِي
خُلِقنا لِلخُــلُودِ مَعًا ... وَإنْ كُنَّا مِنَ النَّاسِ !

***

مَلَكْنا هَــذِهِ الدُّنيا ... وَصُغْناها كما نَهْوَى
مَلاعِبُ فِتْنَــةٍ أصْدَا ... ؤُها سِحْرٌ مِنَ النَّجْوَى
فَيا قِيثارَ أحْــلاَمِي ... تَعَبَّدْ لِلْجَمالِ هُنــا !
وَإنْ أبْصَرْتَ وَلْهاناً ... يَطُوفُ بِهِ ... فَذاكَ أنا !
إلى الماضي رَجَعْتُ أرُو ... مُ في ذِكْراهُ لِي سَلْوَى
فَـكَمْ خَلَّفْتُ في وادِ ... يهِ مِنْ بَعْدِ الهَناءِ مُنَى !

***

فَياشِعْرِي ! خَلَقْتُكَ مِنْ ... هُدَى قَلْبِي وَمِنْ وَجْدِي !
وَهَبْتُ لَكَ الخُــلُودَ فلا ... تَخَفْ إنْ عِشْتَ مِنْ بَعْدِي
وَصُغْتُكَ مِنْ دَمِي فِتَناً ... وَأوْهاماً أناجِيها ...
فَخُذْ أنفاسِيَ الوَلْهَى ... إليْكَ صَبَتْ أمانِيها !
مَلَكْتُ بِكَ الحياةَ فَما ... أرَدْتُ أخَذْتُهُ وَحْدِي
وَهَلْ كانَ الهَوى والشِّعْـ ... ـرُ إلاَّ خَيْرَ ما فيها !!



تأملات فى الفن :

يا علماءنا ... نريد أن نعرف !

للأســـتاذ عزيز أحمد فهمى

— خذ كل من هذا الحمص . إنه من السيد البدوى

— وهل كنت فى طنطا ؟

— نعم . ضيفة عند ناس

— أو لم يعجبك شىء فى طنطا غير الحمص ؟

— السمن هناك جيد ، والخضار أجود

— همُّ بطنك ولا شىء يشغلك غيره ، ألم تفكرى فى زيارة السيد البدوى الذى تأكلين حمصه هذا ؟

— زرته . ولم أنس أن أدعو لك

— شكراً . فلست أدعو غير الله ... أو لم يعجبك شىء فى مسجد السيد البدوى ؟

— لا أذكر ، فهو مسجد كبقية مساجد ربنا

— صحيح . ولكن فيه منبراً هو نفسه صلاة صامتة قائمة دائمة

— يا سلام ... لم يلفتنى أحد إليه

— وعيناك هاتان البرقتان محملقان ولـكنهما لا تريان . امرأة ! ...

— تركنا منبر السيد البدوى وعدنا إلى امرأة ورجل ، مالها الامرأة ؟ كل ما حدث أنى شغلت عن النظر إلى المنبر بالنظر إلى السيد نفسه ...

— ولا السيد . بل قولى إلى الزوار

— آى ، كنت أنظر إلى الزوار . أليس فى النظر إلى الرجاء المتألق فى وجوههم لذة ؟

— وأى لذة عند المرأة أحلى من أن ترى الرجاء متألقاً فى وجه

— كان الزوار كلهن نساء

— ولماذا هذا التخصيص ، ولماذا أسرع إلى ذهنك هذا الخاطر السىء فتسرعى إلى إنكاره بهذا الحسم الجازم... أفتظنين أنك هربت من السوء إلا إلى الأسوأ ؟

— وهل يسوء مجتمع النساء أكثر مما يسوء إذا اختلطن بالرجال ؟

— من غير شك . فهن بين الرجال قد يخجلن فيحتشمن ، ولـكنهن إذا انفردن انطلقن تتفرس كل منهن فى الأخرى . وتفترس كل منهن الأخرى . وما أعجبها إذن معممة حين تشب فى ضريح أو مسجد ، ينقلب المسجد من مطهرة إلى ... إلى مدرسة !

— مدرسة ؟ ! على أى شكراً لله فقد توقعت أن تقول شيئاً آخر ... ولـكن لماذا تقول إن اجتماعنا فى المسجد يقلبه إلى مدرسة ...

— لأنكن بطبيعتكن، إما أن تكن تلميذات، وإما أن تكن معلمات، ولا يمكنكن أن تكن غير ذلك إلا إذا فسدت طبيعتكن. فإذا وصف إنسان اجتماعاً من اجتماعا تكن بأنه مدرسة كان يبنى وصفه هذا على خير الفروض فيكن ...

— كلامك محتاج إلى برهان

— هذا يحتاج برهاناً ؟ لا بأس ... اسمى ... منبر السيد البدوى ...

— عدنا إلى منبر السـيد البدوى ... لن نعود إلى ذكره حتى ننتهى مما كنا فيه ...

— سننتهى منه ومما كنا فيه معاً ... أريد أن أقول لك إنه آية فنية رائعة ، وإنه على ضخامة حجمه وتعقيد تركيبه ، مؤلف من قطع صغيرة التحم بعضها إلى بعض من غير غراء ولا صمغ ولا مسمار واحد، وإنه صنع فى عهد واحد من الخديويين المتأخرين. ولقد أقيم للأستاذ الذى صنعه استوديو أو « أتيليه » خاص كان مؤلفاً من عدة خيام ، وإن الخديو طلب يوماً أن يشرف هذا الاستوديو بالزيارة ليشاهد المنبر أثناء تأليفه ، فاعتذر الأستاذ بأنه لا يستطيع أن يعمل إذا كان عليه رقيب غير الله ... كما أنه لا يستطيع أن يصلى وبينه وبين القبلة إنسان ممتنع عن الصلاة جالس أو واقف ينظر إليه ويحصى عليه حركاته وسكناته ... فهو

لا ريب يشغله ويعوقه عن إحسان الصلاة على الأقل ...

— عجيبة ! ومن هو هذا الأستاذ الفيلسوف ، وماذا كان رد الخديو عليه ...

— ما كان الخديو محب الفن إلا ليقدر مثل هذا الاعتذار وأن يجيزه إكراماً لفن الأستاذ « على جِلْط » !

— على ماذا ؟ جلط ؟ ! يا له من اسم مضحك !

— و «ميكيلانج» أليس اسماً مضحكا ؟ ! أَلأن علياً مصرى تضحكين من اسمه، ولأن الآخر من سادتكم أهل الغرب تستسيغين اسمه على ما فيه من عجمة؟... إن ميكيلانج وميكى ماوس ليسا من أسمائنا ، وإنه من أسمائنا « جلط » ، وبهنس ، وغلوش ، وزينهم وما أشبه ... فلماذا نتحرج من أسمائنا ونضحك منها ساخرين ، وحقنا أن نضحك — إن ضحكنا — معجبين بما فيها من النكتة فلا ريب أن هذه الأسماء الغريبة لا تطلق فى مصر إلا لمناسبات

— أريد أن أسألك عن هذه المناسبات ، ولكنى أخشى أن نخرج من الأستاذ على إليها ، فلا نعود منها ، وقد كنا قبل هذا وذلك فى موضوع آخر هو موضوع « المدرسة » ، الذى أظن أنك لا تزال تذكر أننا تركناه معلقاً ...

— امرأة مرة أخرى : لا تغفل ولا تنسى ، وهو من شروط التلميذة الناجحة ، والمعلمة البارعة ... أما الأستاذ على يا أبلة ، فلعلهم لقبوه بلقبه ، لأنه « جلط » يوماً لحيته بزجاجة أو حدث منه شيء كهذا ... وأما منبره يا آنستى ، فهو الآية الفنية التى لا يمكن أن توصف ، وإنما يجب أن ترى وأن تدرس ، وأما أنت فامرأة ، ولم تلتفتى إلى هذه الآية الفنية العجيبة ، لأن أحداً لم يلفتك إليها ، وهذا شأن التلميذات ، وأنا أراهن أنك إذا زرت السيد البدوى بعد اليوم ، فإنك ستصحبين صاحبة أو اثنتين ، لا لشيء ، إلا أن تلفتيهما أنت إلى المنبر لتكونى لهما معلمة وتكونا هما تلميذتين ، ولست أراهن على هذا إلا لثقتى منه، ولست واثقاً منه إلا لعلمى بأنه شيء فى طبعكن ، فالله أعدكن لتكن أمهات ، والأمهات مربيات ، والمربيات معلمات ، والمعلمات يكن تلميذات قبل أن يصبحن معلمات ... ولا شيء غير هذا يا زين البنات ...

— تلفيقات وترهات ! فنحن أكثر مما تظن ، فمنا الآن مهندسات وطبيبات وفنانات ومحاميات ... كما أنه منا معلمات !

— هؤلاء جميعاً تلميذات ، حتى المعلمات ... كى ترتاحى وتسكتى ...

— أسكت ؟ إن سكت عن خطل الرأى ، فلن أسكت عن تراجعك وانتقاضك على ما سبقت وقررته ... كيف أسكت وقد رددت المعلمات تلميذات ؟ !

— لأنهن هكذا ، فليست فيهن واحدة . . . لها طريقة خاصة بها فى مهنتها أو فنها ... وعلى الرغم من أن الله قد أعدهن ليكن معلمات ، فإنهن لا يعلمن إلا ما تعلمن ...

— وهل تريدهن يعلمن ما لم يعلمن ؟ ...

— أفهن لا يعلمن إلا إذا تعلمن ؟ ... لماذا لا يتعلمن هكذا من الحياة رأساً ... أفنامت عقولهن عن تجاربهن وخبرتهن ومشاهدتهن فى كل شأن من شئون الدنيا إلا المسألة الدنيا ؟

— كلا ! إنى لا أوافقك فى هذا . فإن فينا إمامات وعلى الخصوص فى التربية وفى الفنون . كيف يمكنك أن تجحد المربية مونتسورى ، والممثلة جريتا جاربو ، والمغنية جريس مور ، والراقصة جنجر روجرز و ... و ... و ...

— أما مونتسورى فمعلمة جاد بها الزمن فى القرن العشرين بعد أن ظل الزمن يجود بالمعلمين من قبل سقراط وأرسطو. وعلى أى حال فإن مدام مونتسورى لا تزيد على أن تكون مخترعة لبعض ألاعيب الأطفال . وأما الباقيات اللواتى ذكرتهن هؤلاء فلا أزال أقول إنهن تلميذات فجريتا جاربو لم تكن شيئاً قبل أن يكشفها أستاذها المخرج السويدى الذى نسيت اسمه وأظن أنك تذكرينه ، وأما جريس مور فإنى أتحداها أن تغنى شيئاً إذا لم يلحن لها الملحنون الأغانى ، وأما تلك التى ترقص كالعفاريت التى اسمها جنجر روجرز فقد جربت أن تنفصل عن أستاذها فريد أستر فأخفقت فعادت إليه ومع ذلك فهى لا تزال تتطاول عليه وتقول عنه إذا ذكرتها إنه زميلها وليس قائدها وأستاذها ...

— وكاى فرانسيس التى تحبها ؟

— أنا أحب عينيها أكثر مما أحب فنها

— عينيها ؟ ! لقد قلت مرات إنها ممثلة نابغة

— لو لم يهبها الله هاتين العينين ما كانت نابغة وما كانت ممثلة . هما عينان لو رزقهما رجل لما استطاع إلا أن يكون قديساً ربانيا من غير ما شيء يبرقله . . . فيهما صفاء وشفافة فهما ينضحان

بما وراءها من فكرة أو عاطفة ، فصاحبهما لا يستطيع أن يكذب إلا إذا أغمضهما أو سبح بهما في الفضاء لا يوجههما إلى عيني محادثه ، وهذا شيء يدل على الكذب والصدق أهون منه ، فإذا داوم صاحب هذين العينين الصدق عجزاً عن الكذب في أول الأمر فإنه سيداومه بعد ذلك اعتياداً له ، ثم يداومه أخيراً حبًّا له ، والصدق كما قلت لك مرات هو الخطوة الأولى نحو الله ... وعلى هـذا كانت كاى فرانسيس بهاتين العينين مقصرة حين انتهى أمرها عند أن تكون ممثلة نابغة ... فهمت ؟ !

— إذن فقد انقلبت على نفسها إذ تمارس الآن الكذب ؟ فليس التمثيل إلا الكذب

— لو كانت كاى فرنسيس تكذب ما كانت أعجبتني ، وإنما هي تصدق ، ولا تمثل إلا ما تحسه أو ما أحسته ، ولعلك تلحظين أنها لا تكثر من الظهور ، ولعلك أدركت أن سبب هذا هو أنها تنتظر حتى يوافيها الدور الذي يلائمها والذي تكون قد أحاطت بمثله في حياتها ... وحياتها كما أظنك تعرفين فيها ما فيها ، وأبرز ما فيها أنها تمثل بهاتين العينين الصافيتين الشفافتين ... فرغ الحمص . أليس معك غيره ؟

— خذ ، ولكن بعد أن تعترف ولو لكاى فرنسيس وحدها بأنها أستاذة .

— ليس ما يمنعني من ذلك . فلها أن تكون أستاذة ، ولك أنت أيضاً ذلك إذا زرت منبر السيد مرة أخرى وأديت له حق التأمل والدرس والترحم على صانعه ، ولم يشغلك في زيارته النظر إلى الزائرات من أترابك والتحقق من ملبسهن وزينتهن ولفاتهن

— ولكنك قلت إن هذا من طبع المرأة

— هو طبعها في التلمذة ، وأنت تريدين أن تكوني أستاذة ، والأستاذة هي التي فرغت من النظر إلى غيرها وبدأت نفسها تفيض بما فيها ... وأظن أن المرأة لا تكره هذا إلا لسبب واحد ...

— ما هو هذا السبب أيضاً ؟

— هو خشيتها من الكبر ، فبهذه الخشية تدمن النظر إلى غيرها تخدع نفسها متخيلة أنها صغيرة لا تزال في حاجة إلى التعلم ... حتى إذا ما فاجأتها التجاعيد آمنت بأنها أستاذة ، ولكنها بعدئذ تقضي الحياة في حسرة بدلاً من أن تقضيها في عمل ... سنة الله التي شاءت لكن أن تقبعن في بيوتكن ...

— سأقبع ولن أزور المنبر ...

— زوريه أولا تزوريه ، فستعرف الدنيا خبره يوم ترقى مصر ويبحث علماؤها عن تاريخ علي جلط ومحمد البقري وغيرهما من أهل الفن العربي الذي يقدره الغربيون حق قدره ويردون إلينا من أقصى الأرض وأدناها لينعموا بمشاهدته وليأخذوا عنه ، حتى إذا سألونا عمن أنتجه من آبائنا قلنا : اللهم إنا لا نعرف

— أما الأستاذ علي فقد عرفته بمنبر السيد ، ولكنك لم تذكر لي من هو محمد البقري ...

— صاحب الزخرفة العربية الرائعة التي يتحلى بها « بنك مصر » وتياترو حديقة الأزبكية ... وإذا كنت أنا أعرف هذين فإني أجهل صاحب السلطان حسن وصاحب مسجد القلعة والمؤيد والرفاعي ، وغير ذلك من الآثار العربية الخالدة ... فهل لك أن تسألي لي واحداً من علمائنا عنهم ؟ ...

— بإذن الله سأسأل ... ولكن لماذا لا تهتم أنت بتتبع أخبار هؤلاء وهو أمر شديد الصلة بعملك ؟ ...

— قد يكون هذا حقاً ، ولكن الوثائق تعوزني ، فإن أغلب الآثار العربية ، قد أرخت منسوبة إلى الملوك الذين أنشئت في عصورهم ، ولم تنسب إلى الفنانين الذين عصروها من دمائهم ، وقد جرينا على هذه السنة حتى في عصرنا الحديث فنحن لم نذكر « علي جلط » ولا « محمد البقري » في آثارهما مع أنهما محدثان قريبان وهما لم يمنيا بهـذا لأنهما كانا أخلص للفن من أمثالها الغربيين ، ولم يكونا يسعيان بالفن إلى الذكر الباقي ولا إلى الربح المادي ، وإنما كانا يؤديانه زكاة عما وهبهما الله من ملكة وبصيرة ونظر . ولقد كانا يتعبدان به عبادة ، ولو أنه خطر لأحدهما أن يستغل فنه استغلالاً مادياً لخلف الأموال الطائلة والصيت الرنان ... ولكن الواحد منهما كان لا يعمل إلا إذا احتاج إلى القوت ، فإذا عمل تفانى في عمله وجاء فيه بالمعجزات المحيرة ... وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ، والذي إذا سئل عن نفسه قال إنه « نجار دق » !

— فأي شيء هو ؟ ...

— إنه مهندس زخرفة ينفذ بيـده ما يتصوره عقله من غير أن يستعين على ذلك برسم التصميم على الورق ... وهذا شيء لا يستطيعه إنسان في الغرب وعلى الخصوص إذا تصدى للزخرفة العربية المجردة المعقدة المتجددة

عزيز أحمد فهمي



الـكون يكشف عن نفسه

خفـــايا الضوء

للدكتور محمد محمود غالى

أينحصر الـكون فى ست وحدات أصلية يرد إليها كل ما فيه ؟

عند ما تطالع هذه السطور فانك تراها بفضل أحد هذه الوحدات الدقيقة وهى كائنات نحاول أن نتعرف إليها

نُشيِّد داراً للسكنى وتدخل مواد عديدة فى تشييدها من أحجار البناء إلى الحديد ، ومن رخام الدرج إلى ما يحيط سياجه من نحاس ، ومن أخشاب النوافذ إلى ما يتوسطها من زجاج ، ولا نذكر ما تحتويه الدار من العناصر الكثيرة والمركبات العديدة وأن فى الزجاج وحده من العناصر المتعددة والمركبات المتباينة ما يجعلنا نفطن إلى العدد الكبير من المواد التى نستخدمها فى إقامة البناء ، بل إن مواد من نوع آخر ، مواد عضوية تدخل أيضاً فى تشييد الدار ، وشد ما يختلف ما فى حديقتها من أشجار وزهور عن سائر ما فى البناء : هذا النبات له دور من المراهقة كدور الإنسان ومن الشباب كشبابه ومن الهـرم كهرمه ، وله أعمار تنتهى عندها الحياة ، فيضع البستانى غيره من النبات ينصبه مكانه كما ينصب الابن نفسه مكان أبيه بعد أن يتوارى هذا فى الزمن ، ويترك الابن الدار بدوره لحفيد يستمتع بها ما بقيت أجزاؤها متماسكة تسمح بالحركة بينها وبالحياة فى أنحائها ، يقضى الحفيد فيها سنين طويلة وسط هذه الأجزاء من المادة بين المرح طوراً وظلمة الأيام تارة ، بل إن مواد حية غير المدنية والعضوية قد تدخل بين مكونات الدار تستمتع فيها كما يستمتع صاحبها وتقاسى فيها كما يقاسى ربها ، فقد نشيد فى الحديقة أحواضاً للسمك أو نقتنى داخل الأقفاص أنواعاً من طيور الزينة ، وما هذه وذاك إلا مجموعة من العناصر المعقَّدة تدخل هى أيضاً فى مجموع الدار الفسيحة، ولا تختلف عن الأولى إلا بما لها من مزاج يشبه مزاجنا وآمال تقارب آمالنا

عديدة هذه العناصر ومتباينة هذه المركبات التى دخلت الدار بعمل المهندس وفعل البستانى، فنشأ عنها مكان صالح نثوى إليه بعد النصب ونقضى فيه ساعات من العمر بين لحظات مجدودة وفترات مكدودة ؛ ولو أن امرءًا قال إن الدار مكونة من عشرات العناصر ومئات المركبات لـمـا كان فى قوله انحراف عن الواقع ، ولو أنه قال أيضاً إنها مكونة من ست وحدات أصلية فى الـكون وإن كل ما نراه فيها من عناصر عديدة ومركبات متباينة يتكوّن من هذه المكونات الستة فإنه قد لا يعدو الحقيقة ، ولو أنه خطر ببال أحد أن من يسكن الدار من أحياء كأولادنا ، ومن يؤمها من زائرين كأصدقائنا ، وما يعيش بين جدرانها من أسماك وطيور يدخلون أيضاً فى عداد المكونات الستة المتقدمة ، فإن ثمة علماء عديدين يعتقدون اليوم بصحة ما خطر بباله ، ولديهم من الأسباب العلمية ما يستطيعون بها محاولة إقناعه بأن ما ذهب إليه ليس مما يتطرق إليه الشك

ولا يدور بوهم أحد بعد الذى ذكرنا أن ما نعنيه بهذه المكونات الستة هى « عناصر » مثل الحديد والنحاس ، فإننا بذلك نصل إلى تعداد العناصر جميعها التى تبلغ ٩٢ عنصراً والتى تعثر على الكثير منها فيما استخدمناه فى رفع البنيان ؛ ولا يعتقدنَّ كذلك أننا نعنى بها بعض المركبات كالماء والحجارة فلا مشاحة أن ما يوجد من هذه المركبات فى المنزل يبلغ المئات ، إذ أن هذه المكونات الستة إنما هى وحدات كونية نستطيع أن نَرُدَّ إليها كل ما يتعلق بهذه الدار.

هنالك أمر آخر أود أن يحظى بعناية القارئ ، ذلك أن الوحدات الست التى تكون كل ما يتعلق بالدار ، والتى من بينها وحدة يتسنى لنا بها رؤية الدار وما فيها ، هى بذاتها الوحدات المكونة لمجموع الكون ، فهى كافية اليوم ليرد العلماء كل ما عرفناه فى الكون إليها

هذه المكونات الستة تعد معرفتها من المسائل الثقافية التى

يحسن معرفة شيء عنها ، فهي اليوم موضع بحث أقطاب العلم ، ولذلك نذكرها للقارئ في الجدول الآتي ، فيعرف شيئاً هاماً عن منشأ الدار التي يسكنها ، بل الكون الذي يحيا فيه ويموت

المكونات أو الوحدات التي يتكون منها الكون في مجموعه بما فيه من مادة أو كهرباء أو إشعاع أو طاقة			الشحنة الكهربائية
مكونات كهربائية وسالبة	خفيفة	الألكترون	−e
	ثقيلة	غير معروفة	
مكونات كهربائيةوموجبة	خفيفة	البوزيتون	+e
	ثقيلة	البروتون	+e
مكونات مادية	خفيفة	النيترينو أو الأرجون	صفر
	ثقيلة	النيترون	صفر
مكونات ضوئية		الفوتون	صفر
مكونات معقدة (Complex)		الديبلون	+e
		الهيليون (نواةالهيليوم)	+2e

إذا رمزنا لوحدة الشحنات الكهربائية بالرمز والقدر e فإن شحنة الألكترون أي الوحدة الكهربائية السالبة تكون (e −) وشحنة البوزيتون أي الوحدة الموجبة تكون (e +). وفي هذه الحالة تكون الشحنة للوحدات الأخرى كما هي مبينة في الجدول

هذه المكونات باتت الأصل في كل شيء ، فهي تكون الهواء الذي نستنشقه كما تكون الرئة التي نستنشق بها هذا الهواء ، وهي التي تتكون منها السمكة التي تسبح في حوض الحديقة كما تتكون منها النجوم النائية والسدم البعيدة ، وما المنزل والأزهار والطير ، بل وما يعلوها من كواكب وعوالم إلا أمور ترجع أصولها إلى هذه المكونات الستة التي يشاد منها الكون

* * *

نعود فنتأمل الجدول السابق الذي يلخص لنا موقف العلماء من الكون ، ونود أن يعتبر القارئ وهو يطالع هذه المسميات العلمية التي قد تكون جديدة لديه أنها من المسائل التي يلزم معرفتها ، وكيف لا يجب علينا أن نعرف ما يُكَوِّن منازلنا والأرض التي تحملنا والعوالم التي تملؤنا والكون الذي يحتوينا بل ما يُكوِّن أجسامنا وعقولنا ، ومهما يكن من أمر الكون ، فإننا لا نستطيع أن نستوعب فيه الأشياء إلا على الصور التي عهدناها فيه ، والأوضاع التي ألفناها عنه . ثمة عدد ضئيل من الأوضاع نستوعبها في الكون طوراً ونستوعب الكون فيها تارة ، وهذه الصور أو الأوضاع هي المادة والكهرباء والأشعاع وكذلك الطاقة ، وقد ذكرنا في الجدول هذه الصور ، ورجعنا بالكون إلى وحدات كهربائية ومادية وضوئية ، كما ذكرنا في ذيل الجدول مكونات أخرى معقدة

أما المكونات الكهربائية ، فهي سالبة كالألكترون[1] ، وموجبة كالبوزيتون ، وقد حدثنا القارئ عنها في سلسلة من المقالات كذلك البروتون Proton الذي يكون نواة الهيدروجين. أما المكونات المادية ، فهي وحدات أخرى لا تحمل الكهرباء ، وهما وحدتان النيترينو : Neutrino أو الأرجون Ergon والنيترون Neutron . وقد تناول بالبحث هذه الوحدة الأخيرة[2] حديثاً سنة ١٩٣٣ أيرن كيري وقرينها جوليو من أساتذة السوربون . ولا يفت القارئ أن الكهارب أو الألكترونات موجودة في المادة مع النيترونات . وكما أن الكهرباء في تكوينها ترجع إلى هذه الوحدات الأولى التي يسمونها : ألكترونات أو بوزيتونات، كذلك الضوء يرجع في تكوينه إلى وحدات أصلية يسمونها فوتونات جمع فوتون Photon . وباعتبار أن الوحدة الثقيلة للكهرباء السالبة غير معروفة ، وباعتبار أن الوحدات المعقدة كالديبلون[3] Diplon والهيليون[4] Hélion قد ترد في تكوينها إلى غيرها من الوحدات ، فإنه يغلب على ظني أن الكون يمكن أن نردّه

(١) الألكترون Electron هو الوحدة السالبة للكهرباء وقد اقترح هذه التسمية جونستون ستوني Johnstone stoney في سنة ١٨٩١ . وقد شرحنا للقارئ كيف استطاع « مليكان » R. A. Millikan في أمريكا وجان بيران Jean Perrin من السوربون في فرنسا أن يقيسا بطريقتين مختلفتين الأقدار الذرية وشحنة الألكترون .

(٢) مما هو جدير بالذكر أن بوث W. Bothe وبيكر H. Becker استطاعا في سنة ١٩٣٠ أن يفصلا النيترون

(٣) الديبلون وحدة من وحدات الكون المعقدة كتلته ضعف كتلة البروتون أو ضعف كتلة النيترون ويسميه الباحثون أيضا ديتون Deuton أما شحنته الكهربائية فتساوي شحنة البوزيتون

(٤) الهيليون نواة ذرة غاز الهيليوم وكتلته أربعة أمثال كتلة النيترون وشحنته ضعف شحنة البوزيتون

بما فيه من مادة أو إشعاع أو كهرباء أو طاقة إلى وحدات ست هى : الألكترون والبوزيتون والبروتون والنيترينو والنيترون والفوتون .

وقد يصل العلماء إلى الكشف عن وحدات جديدة ، ولكن يغلب على الظن أن عدد الوحدات سيظل قليلاً وسيظل اللاعبون على مسرح الكون بهذا القدر الضئيل .

* * *

ندع الآن المسميات لنتعرف على أحدها وهو الفوتون أو الذرة الضوئية ، وهو الكائن العجيب الذى يعاوننا فى مطالعة هذه السطور

عند ما نرى فى الليل بريق النجوم اللامعات، أو يخطف العين ضوء إحدى المنارات فى الليل البهيم ، أو تقع العين ذاتها على صورتنا فى المرآة ، أو نحصل بواسطة الجهاز الفوتغرافى على صورة شمسية، أو نرى على الشاشة حوادث العالم، أو نرى بالمرناة (التليفزيون) إحدى هذه الحوادث فى حينها ، فإننا قد استخدمنا الذرة الضوئية أو الفوتون كأداة كبرى لنستمتع بهذه الأشياء

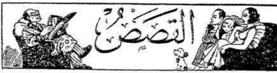
وليس فى عزمى التعرض فى هذه المقالات للتركيب الطبيعى للفوتون، وأذكر أنه على رأى لويس دى بروى Louis de Broglie مكون من نصفى فوتون ، وإنما أكتفى بأن ألفت النظر إلى ثلاثة أمور : الأول أنه أحد المكونات الثلاثة فى الكون غير المكهربة إذ لا يوجد فى كل ما نعرفه من وحدات كونية غير الفوتون والنيترينو والنيترون كوحدات لا تمت للكهرباء بشىء . والثانى أنه المكون الوحيد الذى لا يوجد إلا فى حالة حركة بالنسبة للمادة . ويسرنى أن أذكر أن للأستاذ الدكتور على مصطفى مشرفة بك أبحاثاً قيمة فى علاقة المادة بالأشعاع أود أن أعود لذكرها فيما بعد . والثالث أنه كائن سريع جداً بالنسبة للمادة وتبلغ سرعته أى سرعة الضوء (٢٩٩٨٠٠) كيلو متر فى الثانية

ولقد توصل العلماء بوسائل جديرة بالإعجاب إلى قياس هذه السرعة العظيمة وإلى الوصول إلى معرفتها معرفة دقيقة . وللقارئ أن يتصور عظم هذه السرعة إذا ما عرف أن الضوء يقطع المسافة من مصر للاسكندرية فى أقل من واحد على ألف من الثانية

وقبل أن نستمع للمذياع (الراديو) بعشرات السنين ، استطاع علماء عديدون أن يقيسوا سرعة الفوتون ، هذا الكائن العجيب ، وكان لقياس هذه السرعة ولما عرفناه عنها أثر كبير فى معارفنا الحديثة ، وقد تعدى هذا الأثر كل شىء ، حتى أنه تدخل تدخلاً فعليا فى معرفتنا قوانين الكون

ولعل القارئ الذى نفرض ونحن نتوجه إليه بهذه السطور أنه من غير المشتغلين بالعلم أو المختصين فى العلوم الطبيعية ـ قد سمع بالدور الهام والمرحلة الكبرى التى تمت فى العلوم من معرفة سرعة الضوء فى اتجاه ومعرفة سرعته فى اتجاه مغاير للاتجاه الأول ، وما كان لذلك من الأثر فى تدعيم نظريات « أينشتاين » الحديثة فى النسبية . ولعل القارئ يستنتج الآن نوع الاتجاه الذى أحاول أن أوجهه إليه فيما سأعمد إليه من مقالات قادمة ، ولعلنا فى النهاية قد وفقنا بعض الشىء لكى نصف له شيئاً من الدار التى يسكنها والكون الذى يعيش فيه .

محمد محمود غالى
دكتوراه الدولة فى العلوم الطبيعية من السوربون
ليسانس العلوم التعليمية. ليسانس العلوم الحرة. دبلوم الهندسخانة



نهـــاية الطريق

للكاتب المعروف دى فيرستا كبول

للأستاذ محمد بدر الدين

في سنة ١٩١٣ كنت أجول في أنحاء إيطاليا ، أطوف بمواطن الروعة والجمال فيها ...

وكنت أستقبل فصل الخريف ، حين خلفت روما ورائي ، وسرت نحو جبال الأبنين ، دون أن أحمل من المتاع سوى حقيبة صغيرة ، ودون أن أترك عنواني لأحد ، كيلا أدع الفرصة لشخص يراسلني ، فمن الخير أن تطوف وحيداً ، إذا أردت أن تشاهد بلداً من البلدان أو أن تدرسه خير دراسة

انطلقت في طريقي وحيداً لا ترافقني غير مزارع الكروم والحقول المخضوضرة النضرة ، والسماء الزرقاء ، و... فلاحي إيطاليا ذوي البشرة السمراء ، لوحتها أشعة الشمس الحامية . فاستطعت أن أرى إيطاليا تتكشف أمامي على حقيقتها ، وإذا بها رغم الطرق الحديدية التي تخترق أرجاءها ، ورغم مخترعات ماركوني المنبثة في بقاعها ، لا تزال نفس إيطاليا القديمة ، التي كانت في عهد آل بورجيا

وفي ذات أصيل ، أفضت بي الطريق إلى فندق قام في معزل إلى اليمين ، لا يلوح إلى جواره منزل أو بناء ، وكأنما أقيم في مكانه هذا ليرحب بالقادمين الذين أنهكهم المسير ، وليغريهم على التماس الراحة ، وعلى استعادة النشاط في كأس مترعة من الشراب ...

أغراني الفندق المنفرد في عزلته ، والذي بدت لي عند بابه حروف زرقاء باهتة ألهبها شواظ الشمس ، تعلن عن اسمه ... « أوستريا ديل سولي » فتقدمت ، فإذا بكهل يجلس إلى يمين المدخل ، على مقعد طويل ، يمتع النفس بشمس الأصيل . وقد استلقت إلى جواره قطة سوداء . وما لبثت أن عرفت فيه صاحب النزل الذي قدم نفسه إليّ باسم « الفريدو باولي » ... وسرعان ما كنا نجلس في غمرة الأشعة الدافئة ، نتجاذب أطراف الحديث ، ونحن نجرع خلاله كؤوس « الكيانتي » الذي قدمه الرجل إكراماً وترحيباً ...

تكلمنا عن إيطاليا ، وعن محصول الكروم ، وعن الضرائب ، وعن ذكرى غاريبلدى ... الذكرى التي عادت بالرجل إلى سني عمره الباكرة . وما لبثت أن عرفت أن المدينة التي كنت أسعى إليها ، تبعد عن النزل بما يعادل ستة أميال . فاقترح الرجل أن أنزل عنده تلك الليلة ، وراح يغريني بما سوف أجده في حجراته من نظام وراحة ونظافة ، قائلاً :

— إنه ليس بالفندق العادي ... فنحن هنا لا نرتقب من الضيفان غير الرحالة الذين يدفعهم النصب إلى التماس كأس من الشراب . ولكن حديثك يطيب لي ، حتى لقد ملت إليك ، فأنت على الرحب والسعة

كان ينبغي لرحالة مثلي يجوب البلاد على قدميه حاملاً معه مالاً ، أن يخشى من وراء دعوة كهذه شراً ، أو أن يتوقع غيلة من أجل هذا المال الذي يحمله . بيد أنني لم أك بطبيعتي ممن يستسلمون للهواجس والريب ، كما أنني لم أر في باولي العجوز ، الشخص الذي يستطيع الإقدام على سرقة أو قتل ...

ومع ذلك فقد سلبني نوم ليلة ... وقتل راحة كنت أنشدها فما إن قبلت دعوته حتى اضطجع في مجلسه ونادى صائحاً :

— جيوفانا !

فأجابه صوت نسائي من داخل الدار ، ظهرت على أثره امرأة رزح ظهرها تحت عبء السنين . فأمرها — والشمس ترسل شعاعها الأخير — أن تعد العشاء ، وأن تهيء الحجرة كما تملي واجبات الضيافة ، فتلقت الأوامر صامتة ، ثم كرت عائدة إلى الداخل ، بينما تحولنا إلى حديثنا عن غاريبلدى نتابعه

فلما فرغنا من تناول العشاء ، عدنا إلى مقعدنا خارج الدار ثانية ، وراح الكهل يقص عليّ قصته ... قصة شبابه التي لم أسمع في حياتي مثلها ، ولم أصغ لقصة من قبل أو ... بعد ، إصغائي لها فقد مضى يتكلم كما لو كان يفضي بقصة سواه ، وقد لاح كما لو كان الزمن قد حوله إلى كائن يغاير كل مظهر إنساني ، تتخلل حديثه حيوية المتفنن الذي يتفانى في عشق فنه ، وحرارة الخطيب يحاول أن يأسر بفصاحته وبلاغته ألباب المستمعين ...

قال : ولدت في بيروجيا ؛ وهي غيرها اليوم ، وكان والدي تاجر عاديات ، يقوم متجره على ناحية الطريق التي تصل ميدان البابا

رحبة واسعة تتراءى خلفها تلال « أومبريان »

ولقد يخيل إليك - لأول وهلة - أن الموقع كان رديئاً . بيد أن والدي لم يكن بالرجل الذي ينصب شراكه في مكان غير ملائم ، إذ كان يعرف كيف يجتذب العملاء ويغري الزائرين على الابتياع منه .

وكانت أسرته تتكون من ابنين ... أنا وأرتورو ، وقد كنا توأمين متشابهين كل الشبه . غير أن أرتورو كان ذا روح مغامرة ، حببت إليه البحر ، فما لبث أن غدا بحاراً ، بينما مارست أنا - وكنت أكبره بخمس عشرة دقيقة - تجارة العاديات ، فصرت مساعداً لأبي

كانت المهنة - رغم أنها تتطلب دراية تامة بالأشياء وبنفسيات الأشخاص - تعتمد كل الاعتماد على الخبرة التامة بتقدير ثمن السلعة والتأكد من أنها حقيقية غير زائفة ، وقد كانت لوالدي هذه الخبرة بالسليقة ، إذ انحدر من سلالة تمشقت هـذا الفن ، هواية أو احترافاً ... كما كانت لي نفس الخبرة إلى حد ما ، فقد كانت إيطاليا القديمة تتمشى في دماء والدي ، كما كانت تسري في عروق بكل ما كان فيها ، وبكل ما كانت تتميز به ، و ... بكل ما عرف عنها من عواطف ومن حقد وكراهية ...

وسارت الحياة سهلة لينة ، حتى بلغت العشرين ربيعاً ، وإذ ذاك جاء يوم تغيرت فيه حياتي

ففي ذات يوم ، قابلت في طريق « دي بونتوبي » فتاة كثيراً ما صادفتها من قبل ، وطالما تلاقيت وإياها في بعض المناسبات ، إذ كانت تصلها بي قرابة بعيدة . وكانت تسكن في ذلك الميدان الذي يطلق عليه الآن اسم « فيكتور عمانويل » ... ثم كانت تنحدر من أسرة نشأت في جنوا . فأضفى عليها أصلها هذا ، جمالاً أشقر رائعاً ، تبدى لي في ذلك اليوم في أبهى روعته ... فقد تمثلت لي يومذاك ، فتنة الشباب ، وجمال الربيع ، في « جيوفانا باتسيتا » ، ولاحت لي ، مع أنني كنت أعرفها - كما ذكرت - وكأنني لم أرها قبل ذلك اليوم ...

وبالرغم من أنني كنت أحس جمالها ... إلا أنه لم يبعث في نفسي يوماً أكثر من إعجاب وقتي ، لا يلبث أن يتلاشى ... أما في ذلك اليوم ، فقد لاح لي أكثر فتنة وسحراً ... فما هي إلا نظرة من عينيها حتى وقعت في شراكها ...

وحتى هـذه اللحظة ، لم يبد لي الأمر جدياً يثير اهتمامي ، فلو أنني سمعت إذ ذاك نبأ موتها ، لما نال مني كثيراً ... !

لم أقل لها إذ ذاك شيئاً ، ولم أنبس ببنت شفة ، بل مضيت في سبيلي ، كشخص عثر بغتة على كنز في طريقه ، فأسرع يخبئه في ثنايا ردائه ، وانطلق يجد في خطاه نحو بيته ...

حتى إذا كان اليوم التالي ، قابلتها مرة أخرى ... وفي هذه المرة أيضاً ، أفضت إلى عيناها بما لم أجرؤ أن أصدقه . .

كنت حديث عهد بالهوى ، فلم أدر ما أفعل ... ولو أنني خلوت بها في مكان ناء لكان في وسعي أن أقدم على تصرف سريع ، دون أن أتفوه بحرف واحد . أما وقد كنت في بيروجيا فلم يك أمامي غير أن أزورها حيث تسكن ، أو أن أبوح لها بحبي على قارعة الطريق ، في جرأة أستمدها من أناة أتذرع بها ... !

وما كنت لأجد في نفسي هذه الجرأة ، فما عتمت أن تحولت تاركاً الأمور تجري في أعنتها ... ولـكنها لم تلبث أن غادرت المدينة !...

لم تك غيبتها هذه إلا لنزهة قصيرة ما كانت لتستغرق الشهر أبداً ، بيد أنني كدت أقضي حزناً وأسى ، إذ أذكى البعاد أوار الحب في قلبي ، وأصبحت أرى في البقعة التي كنت أصادفها عندها ، قبلة أحج إليها . كما كنت أقف في الأمسيات أمام دارها ، وقد غمرني شعاع القمر ، والوجد يلهب أحشائي ، والأسى يمزقني بأنيابه الحادة القاسية ... حقاً ، إن الحب جنون ! ...

لست أود أن أثقل عليك ، ولكنني أحببت أن أريك كيف شاء القدر أن يسرى للقضاء على ...

وأمسك الرجل برهة ليفرغ في جوفه بقية كأسه ، بينما انبعث صوت العجوز من داخل البيت :

- الفريدو ... إننا الآن في ساعة متأخرة

فضحك سائلاً إياها أن تدعه وما يشاء ، ثم عاد يتابع حديثه :

- برح بي الهوى حتى لم يبق مني غير هيكل بال لرجل ضعيف . فلم أعد أهتم بالعمل ، أو آبه للفن حتى لطالما اشتجرت مع والدي إذ أضعت عليه كثيراً من الصفقات المربحة

ولو أن الأمور سارت على هـذا المنوال ، لغادرت بيروجيا إذ ذاك مطرحاً عملي ، هاجراً موطني . غير أن الأقدار أشفقت علي ، فساقت إلي الشفاء يوماً . فقد عادت جيوفانا إلى المدينة ، وقابلتها في الطريق ، فلم أتردد في البوح لها بما يعتلج بين جوانحي من غرام . فأطرقت تصغي إلي برهة ، ثم تحولت لحدقت في عيني ، وابتسمت عند ذاك ، أيقنت أنها أصبحت لي ، فصرت رجلاً آخر ...

كانت ثروتي وفيرة لا بأس بها ، وكانت أخلاق حميدة لا عيب فيها ، فلم أجد معارضة من والدي جيوفانا عند ما تقدمت

لطلب يدها . وصار لنا أن نلتقى كل مساء ، فننعم بجولة بديعة خارج المدينة ، عند الكروم الغناء ... ملتقى العاشقين ...

وقررنا أن يكون الزواج فى الصيف ...

ثم حان عيد « الكرنفال »

كان « الكرنفال » فى تلك الأيام الخوالى أكثر مرحاً وبهجة منه الآن . فكان الناس يطرحون عنهم شؤونهم ، وينصرفون عن كل شيء ، ليندمجوا فى ملاهيه وأفراحه

وفى آخر ليالى « الكرنفال » كنت على موعد مع جيوفانا عند بقعة قريبة من « دومو » ، وقد حلا لها أن تتنكر فى رداء غانية أسبانية، بينما اخترت أنا للباسى حلة مزركشة وقناعاً قرمزياً. ولما كانت صحة والدى معتلة فقد لزم البيت طيلة اليوم بعد أن أخبرته بالأماكن التى أعتزم ارتيادها، وبالمواقيت التى سأكون فيها هناك، حتى يكون فى وسعه الاتصال بى، إذا كانت ثمة حاجة لهذا الاتصال

كان موعدى مع جيوفانا فى الساعة السادسة إلا عشر دقائق عند « فونتى مادجيورى » على مقربة من « دومو » . وقد يخيل إليك أننى كنت هناك قبل الموعد شأن كل عاشق مستهيم ... بيد أننى فى الواقع وصلت إلى مكان الملتقى متأخراً . إذ كان بساعة صديقى مانفريدى الذى قضيت عنده فترة الظهيرة ، خلل جعلها تؤخر فى الوقت . بينما تعمَّدت أن أترك ساعتى فى البيت خشية أن يسلبنيها اللصوص الذين كانوا يندسون وسط المهرجانات فى مثل هذا العيد ... فلما وصلت إلى فونتى مادجيورى ، كانت النواقيس تدق ، فلم أكد أصدق سمعى ، لا ولا بصرى ، عند ما ترامت الدقات إلى أذنى ، ولم أجد جيوفانا ...

ثم حدست ما وقع ... فلا بد أنها حضرت فى الوعد ، حتى إذا لم تجدنى انصرفت عائدة . ولو أننى فكرت فى هذا ، لأدركت مدى استحالة بقاء فتاة وحيدة فى الانتظار عند فونتى مادجيورى فى ليلة العيد ، ولأنحيت باللوم على نفسى بدلاً من أن أسمح للغضب أن يطغى فيجتاح قلبى ...

كنت أعلم أن جيوفانا رغم ليونتها ورقتها ، ذات طباع حادة قاسية . فظللت واقفاً أتلفت حولى وهذه الفكرة توحى إلى بما يذكى نيران الغضب ويزيد شعلتها لهيباً . بينما كان القوم يمرون بى فى طريقهم إلى الساحة لمشاهدة موكب العيد ، وهم فى أحاديثهم وضحكهم عنى لاهون ... ثم تحولت إلى حانة ، فاتخذت لنفسى فيها مجلساً ، وطلبت شراباً قوى التأثير ، رحت أحتسيه وأنا غافل عن رجل أسمر ، كان يجلس إلى منضدة قريبة ...

لم أسرف فى الشراب قط مثلما أسرفت فى تلك الليلة . فقد لاح لى الكحول ساحراً بدد غضبى وأبدل به شيئاً من اليأس ، الذى لم يلبث أن تحول إلى شعور من عدم المبالاة . وسرعان ما تناسيت جيوفانا ، واندمجت فى الحديث مع الرجل الأسمر ، الذى عرفنى ونادانى باسمى ، يدعونى إلى مجالسته

كان الرجل أحد تجار التحف فى بيزا ، وقد رأيته فى متجر والدى يومذاك ، إذ ذهب ـ رغم العيد ـ يسعى وراء صفقة . بيد أنه لم يحظ بفائدة لمرض والدى . وكانت لديه تحف رائعة ثمينة يبتغى بيعها بثمن بخس ، إذ حصل عليها فى سرقة ارتكبها فوجد أن من الخطر استبقاءها فى حوزته فى بيزا . وقد أرانى منها بودينى ـ إذ كان هذا اسمه ـ صليباً من الذهب المرصع ببعض الأحجار الكريمة ، وقرطاً ، وخنجراً من الخناجر الفلورنتينية ذا مقبض فضى . فعرضت عليه أن أبتاعها منه، غير أننى لم أك أحمل الثمن الذى ابتغاه. فلم يأبه لذلك، إذ كانت معاملاته معنا على ما يرام لذلك تناولت منه هذه الأشياء ، فوضعت الصليب فى صدر ردائى ، ودسست الخنجر ـ وقد غاب فى قرابه ـ فى جيب خفى ...

وما إن فارقنى بودينى، حتى عدت ثانية، نهبة للهواجس وفريسة للهموم، ولما بارحت الحانة، كانت الأضواء تتلألأ مؤتلقة فى المدينة وقد تصاعد ضجيج الجماهير المندمجة فى مهرجانات « الكرنفال » كهدير الأمواج الصاخبة . فوقفت برهة موزع الخاطر متحيراً ، ثم تحولت نحو ساحة الاحتفال ، وأنا أسائل نفسى ... أما كان يحسن بى أن أيمم شطر بيت جيوفانا ؟ ...

لاحت لى المدينة كمجنونة اكتسحتها نشوة الفرح التى يمثلها العيد ، وقد تراءت كشعلة من النيران ، وبدا الناس وهم صرعى نوبة من الخبل المرح ، يحيطون بالساحة يشاهدون « مصارعة الثيران » فاندمجت بينهم ، وقد تناسيت جيوفانا . حتى إذا انتهى الصراع ، وتشتت القوم متفرقين وجدتها أمامى !

كانت فى صحبة رجل ... وقد أولیانى ظهريهما فلم يريانى ، بينما أحاط الرجل خصرها بذراعه ، ومضى يشق لكليهما طريقاً وهم يضحكان فى حبور . فدوت ضحكاتهما فى مسمعى كقصف الرعد . إذ كان يخيل لى أننى الرجل الوحيد فى بيروجيا ، الذى اصطفته جيوفانا خليلاً ، وتعرفت إليه ...

وقفز الخنجر من جيبى إلى يدى ، فكدت أغمده فى ظهر

رفيقها لو لم تندفع كوكبة من الخيل إلى الساحة تتسابق ، فحالت بيني وبينهما . فلما مضت لم يك ثمة أثر لجيوفانا ورجلها ! ...

ولك أن تتصور موقفي ، وقد أعمتني ثورة الغضب ، بينما أخذ الخنجر يحز راحة يدي ، وضحكات القوم تستثيرني وتوهمني بأنهم جميعاً يعرفون قصتي ويسخرون مني . بيد أن إرادتي كانت قوية فلم ألبث أن أعدت الخنجر إلى جيبي وأنا أحمل النفس على الصبر وأعللها بالأماني ... واندفعت مع القوم

وما لبثت أن ظفرت بثمرة صبري ، إذ عثرت على جيوفانا ورفيقها في طريق « بيكولو امبرتو » ، فرحت أقترب منهما حتى بات في وسعي أن أحصي الشعيرات خلف رأسها ، أو أن أحل الرباط الذي يثبت القناع على وجه صاحبها . ولكن يدي لم تعد تتحسس الخنجر هذه المرة ؛ فقد وجدتني في أهدأ الحالات ، أتحين اللحظة الملائمة لإنفاذ انتقامي دون أن أعرض نفسي لأتفه الأخطار

تبعتهما في طريق « بيكولو امبرتو » وهما يسيران في عزلة عن القوم لاهيين ، وقد غابا في غمرة سعيدة أنستهما ما حولهما ، حتى أنهما لم يلتفتا نحوي مرة واحدة ...

ثم ... لحظة واحدة يا سيدي ...

وهم باولي من مجلسه لحمل زجاجة الشراب الفارغة ، وغاب في المنزل ... وسمعته يسأل جيوفانا عن مفتاح المخزن ، فأجابته بصوت نم عن غضبها لإقلاق راحتها ، وكأنما كانت متذمرة لبقائه ساهراً حتى تلك الساعة المتأخرة ، في جو الليل الرطب البارد ، يتناول الشراب مع شخص أجنبي لم يسبق لها التعرف إليه ...

ثم عاد يحمل زجاجة جديدة من الشراب ، فاتخذ مجلسه ثانية وتابع حديثه وكأنما لم يقطعه على نفسه ...

اتبعتهما في الطريق، حتى وصلنا إلى أخرى تفضي إلى بيتها . وقبيل باب الدار ، افترقا...

لم أصدق عيني وأنا منزو في مخبأ في الطريق . فقد كانت بيروجيا بأسرها — لا الحي وحده — تعرف أنني خطيبها وأننا سنصبح عما قليل زوجين . ومع ذلك ، فهأنذا أراها قبيل الزواج ببضعة أشهر تساير شخصاً غريباً على أثر إهمال بسيط صدر مني عفواً ودون إدراك مني ... شخصاً التقطته من بين الأفواج المتدفقة في ساحة « الكرنفال » !

وولجت هي بيتها، بينما عاد هو في الطريق يصفر فرحاً جزلان، فما إن ابتعد عني ثلاثين خطوة ، حتى تسللت في أثره ، وقد قررت — بعد إذ رأيت ما بينه وبينها من علاقة — أن أقدم له الجزاء الذي يستحق ... كان يجب أن يموت ، وكان ينبغي أن تموت هي أيضاً ، ولكنه الأجدر بالأسبقية في تلقي الجزاء !

كان من السهل أن أغتاله في تلك الطريق ذات الأضواء الضئيلة، التي لا تكاد تقوى على مكافحة الظلام الطاغي ... ولكن ... ألا يجوز أن يقبضوا عليّ ، فتفلت هي من انتقامي ؟ ...

وصمت العجوز مرة أخرى ، لينزع عن الزجاجة سدادها ، فيملأ الكأسين، بينما كان القمر قد اعتلى كبد السماء، وازداد ضوؤه الفضي تألقاً، حتى تراءى لنا المنظر المحيط بنا، وكأنه يبدو في وضح النهار . حتى إذا أفرغ كأسه في جوفه ، عاد يقول متابعاً قصته :

« لعلك تقدر موقفي يا سيدي ، فقد كان عليّ أن أحرص على حياتي ، حرصي على كنز ثمين ، حتى أتم انتقامي كاملاً ، وهذا لا يتأتى إلا إذا فرغت من حساب جيوفانا على ما قدمت ...

ومع ذلك ، ظللت أتعقب الرجل ! ...

والظاهر أنه كان قد اختطف ألعوبة « شخشيخة » أحد المهرجين ، أثناء المهرجان ، فراح طيلة الطريق يهزها يمنة ويسرة ويضرب بها ظهور الناس خلال الزحام، وهو يضحك ساخراً لاهياً في غفلة عن ذلك الذي يتعقب خطاه، معداً خنجره للقضاء على حياته

كان يلوح كمن يبتغي اجتذاب أنظار القوم . فكان يسخر من كل فتاة أو شاب يعترض طريقه ، ويهزأ بكل عجوز أو كهل يصادفه ، مرسلاً قهقهته عالية في الجو . وكأنما هو لم يكتف بما نعم به من سعادة في رفقة جيوفانا، فما لبث أن أوقع في أحبولته فتاة أخرى، أحاطها بذراعه ثم دفعها معه ، وقد تبعتها صويحباتها وهو غير مكترث بهن . ولعله كان يحمل نقوداً وفيرة إذ لجأ إلى مشرب راح يبعثرها فيه بغير حساب ...

ما كنت أرى وجهه، فقد كان ظهره نحوي. بيد أنني كنت أرى أنه قد وفق في أن يبدو الروح الحية التي ظهرت في المشرب فطغت على كل من فيه ، ثم . . . تفرق الجميع كل إلى وجهته ، فعاد وحيداً يسلك طريق « أندريا دوريا »

وهنا ... وجدت الفرصة الملائمة ! ...

كانت الطريق مقفرة ، ولم يك ثمة من يرانا ، وحتى لو وجد هـذا فقد كان الظلام الضارب فما بين المصابيح ، لا يدع لأحد الفرصة كي يتأملنا جيداً ؛ فلم ألبث أن أمسكت بكتفه ، ورحت أنظر إلى وجهه الذي كان شاحباً ، تعلوه كآبة تبعث في النفس

الرغبة في تهشيمه... كنت مجنوناً، وقد أخذت الوقائع التي حدثت في ذلك اليوم تتتابع متزاحمة في رأسي... كان هناك حبي لجيوفانا، وغيرتي، وحقدي، ثم... مفعول الكحول القوي... كل هذا كان يدفعني نحو الجنون، بينما أخذ الشاب يقاومني في نضال، وأحسست بسكين تصيب كتفي الأيسر ، ثم هويت إلى الأرض بينما كنت أغمد خنجري في قلبه بكل ما واتاني به الحقد والغيرة من قوة!...

سقط الرجل عند قدمي جثة هامدة شاحبة ، وما زال الخنجر مدفوناً في صدره . ولكنني لم آبه لذلك ، ولم أسع إلى الفرار... ولعل هذا أغرب ما حدث ... فقد كنت أنتوي قتل جيوفانا ، ثم أنتحر ، ولذا لم أجد ما يبعث على الفرار !

لم أك أدرى لكل هذا سبباً . غير أنني أدركت فيما بعد، أن عقل الإنسان لا يطيعه في كل الأحوال ، وإنما هو – في المآزق الحرجة والمآسي الروعة – يتمرد عليه ليعمل بإملائه ووحيه . . .

جررت الجثة إلى مدخل المباني القائمة في الطريق فأسندت ظهرها إلى الباب حتى بدا صاحبها تحت ضوء المصباح الغازي الصغير المعلق فوق المدخل ، وكأنه ثمل غلبه النعاس . ثم انطلقت في طريقي بعد أن تحققت من المكان الذي تركت فيه جثة غريمي

لم يعد أمامي بعد هذا إلا أن أحاسب جيوفانا ، لذلك يممت شطر بيتها ، ودققت الباب ثم ولجت ...

كانت أسرتها ما تزال غائبة في « الكرنفال » ، وكانت هي لم تأو بعد إلى فراشها ، فما لبثت أن هبطت للقائي ...

وكنت أقف في الحجرة التي اقتدت إليها عند حضوري ، متكأً إلى منضدة في قبالة الباب ، عند ما قدمت . فما رأتني حتى حدقت في وجهي دهشة وتساءلت :

– لماذا عدت ثانية ؟

فأطلقت ضحكة عالية، ولم أنبس ببنت شفة. وإذ ذاك تراجعت وقد لاح على محياها الفزع ؛ غير أنني لم أفكر في أن خوفها هذا قد يكون منبعثاً عن غرابة مظهري وعن إخلاصها لي . وإنما خلت أنها فطنت إلى أنني كشفت خيانتها ، فكان هذا مصدر جزعها ، لذلك صحت بها :

– ما اسمه ؟

– اسم من ؟

– من !؟ الرجل الذي أوصلك إلى باب هذا المنزل منذ ساعة

– إنني لم ألتق بسواك هذا المساء ...

لاح لي أنها كانت تنطق عن حقيقة وصدق . فبدأت أفهم الأمر ... لا بد أن ثمة شخصاً اتخذ مظهري وتقدم إليها منتحلاً شخصيتي . فلما أفضيت إليها بما ساورني ضحكت قائلة :

– لقد كنت أنت الذي رافقني ، وقد وضعت على وجهك قناعاً زائفاً . . . ثم كان موعدنا وملتقانا عند فونتي مارجيوري ، وهذا ما لا يعرفه سوانا ...

فصحت :

– يا لله ! ... ولكنني لم أقابلك إذ تأخرت عن موعدنا ...

خيل إليّ أنها ظنتني مجنوناً أو كاذباً ... وتراءى لي الأمر كلم ، فظللت صامتاً يداخلني الشك في صحة قواي العقلية ؛ بل لقد أيقنت أنني مجنون ، فرفعت القناع القرمزي عن وجهي وأطرقت إلى الأرض. ثم... تذكرت الرجل الذي خلفته مستنداً إلى الباب في تلك الطريق القفرة بعد أن سلبته الحياة. وإذ ذاك خيل إلى أن ثمة قوى خفية تسيطر عليّ وتدفعني إلى أن أغادر البيت.. البيت الذي دخلته لأقضي على جيوفانا، فخلفته وأنا نصف مجنون، تسوقني قوى خفية – رغم إرادتي – إلى حيث لا أدرى ...

وجدتني أخيراً عند باب بيتي ... وكان المنزل مظلماً عند ما ولجته ، فأغلقت الباب خلفي وتقدمت . وإذ ذاك سمعت والدي يصيح متسائلاً عن القادم ، إذ كان ملازماً حجرته لمرضه . فلما وصلت إليه ، وجدته جالساً في الفراش ، متدثراً بالأغطية ، وعلى ركبتيه كتاب مفتوح ، وإلى جانبه المصباح . فما إن رآني حتى بادرني :

– آه ، أهذا أنت ؟ ... وأين أرتورو ؟ ...

والآن ... لعلك تذكر أنني أخبرتك في بداية القصة ، أنه قد كان لي أخ أحب البحر فعمل كلاح . وأنه كان يشبهني كل الشبه ، إذ كنا توأمين

صحت بدوري أسأل والدي :

– ماذا تعني ؟ ... إن أرتورو في البحر ...

بيد أنني لم أتم كلامي حتى خالجني شعور رهيب ، كاد قلبي أن يقف له عن الوجيب ، بينما سمعت والدي يقول :

– لقد عاد أرتورو اليوم ، فانطلق يبحث عنك ، بعد أن أخبرته أن في وسعه أن يعثر عليك عند فونتي مادجيوري في الساعة السادسة ، إذ أخبرتني أنك ستلتقي جيوفانا ...

وإذ ذاك ، شعرت بالأرض تميد بي ، فتهالكت على مقعد

بجوار فراش أبى ، ومضيت أقول دون وعى :

— لقد تأخرت عن الموعد ، وسبقنى أرتورو إلى هناك ، فظنته جيوفانا إياى ، وتقدمت إليه ، ولما كان يعرف أنها خطيبتى فقد شاء — حباً فى المزاح — أن يدعها على اعتقادها ، وبعد أن طاف برهة فى رفقتها ، أوصلها حتى باب دارها ثم ودعها وهو ما يزال منتحلاً شخصيتى . اتخذ طريقه عائداً ، يساوره الأمل فى أن يلقانى فيضحك منى للفصل الذى أتقن تمثيله . بيد أنه لم يك يدرك أننى أتعقبه طيلة ذلك الوقت ، ظاناً أنه شخص غريب سلبنى خطيبتى ، وأوقد فى أعماق نيران الغيرة

فانتفض والدى بغتة فى فراشه ، وكأنما أصابته رصاصة ، وصاح :

— ماذا تقول ؟ ... ما الذى تعنيه ؟ ... أين أرتورو ؟ فأجبته : لقد مات غيلة بخنجرى الذى لا يزال فى صدره ...

فهت بهذه الكلمات وأنا هادئ كل الهدوء ، كما لو كنت أنقلها عن شخص آخر كنت لا أستطيع أن أتصور ما فعلت ، وأن أعتقد حقاً أننى ارتكبت تلك الجريمة ! ...

أجل يا سيدى، كان هذا عين ما حدث .

وأطرق الرجل برهة ، وكأنما غلبه الأسى لتلك الذكرى ، ثم ما لبث أن عاد يقول :

— غير أنهم لم يعاقبونى ، إذ أخذتهم بى الشفقة عندما رويت لهم قصتى ، كما أرويها لك الآن ...

وما لبثت بعد ذلك أن تزوجت جيوفانا ، سافرنا إلى بيزا معاً فاستقر بنا المقام هناك ...

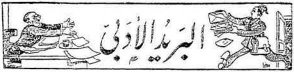
كان هذا منذ سنوات ، وقد مضينا عقب ذلك فى الحياة ، دون أن نوفق إلى جمع ثروة أو عقار ، اللهم إلا هذا الفندق الذى امتلكناه أخيراً ...

ومع ذلك فإننا فى نهاية المرحلة ... فماذا يهمنا ؟ ...

وفرغنا من الشراب ، فقادنى إلى الغرفة التى أعدت لنومى . وفيما كنت مستلقياً فى فراشى ، يقظاً أتأمل شعاع القمر ، وقد تساقط على جدار حجرتى ، وأنصت إلى حفيف أشجار الزيتون ، يداعب أغصانها نسيم الهزيع الأخير سمعت جيوفانا تقول ساخطة :

— هل أويت إلى فراشك أخيراً ؟ ... جميل حقاً ، أن تدعنى يقظة حتى الآن فى انتظارك ! ! ...

محمد بدر الدين



رجعات

١ — قرأت كلمة العالم الثقة المتواضع « أزهرى (طنطا) » فى العدد الـ ٣٤٧ . وفيها نبه الكتاب والرواة إلى أن أفلاطون هو الذى قال : « لا تقصروا (تقسروا) أولادكم على آدابكم ، فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . ويحلو لى أن أعود إلى مناقلة ذلك العالم ومثاقفته ، فأخبره بأن هذا القول ورد منسوباً إلى أفلاطون أيضاً ، على قلم أسامة بن منقذ فى « لباب الآداب » ـ مصر ١٩٣٥ ص ٢٣٧

٢ — كنت استشهدت فى مقالى « مناقلة ومثاقفة » (الرسالة ٣٤٦) بكلمة بليغة لابن شبرمة ، وهى : « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سوء » . فذهب صاحب « الأدب فى أسبوع » فى العدد التالى إلى أن هذه الكلمة « تبدو له نصاً عربياً مظلم النور » . فقال — معترضاً — : إن تحرير روايتها يكون بوضع : « غـبّرات » (أى : بقايا الشىء) موضع : « غبارات » . وجلب لأجل ذلك قولاً لعمرو بن العاص وآخر لأبى كبير الهذلى ، وردت فيهما كلمة « غُبّر » وجمعها « غبرات (المآلى) » لبقايا دم الحيض (المعذرة أيها القارئ !) . ثم خرج المعترض من وراء « تحقيقه على التحرير والدراية » ، يأمر الناس يقول : « فمن كانت عنده نسخة من العقد الفريد (طبعة بولاق) فليصححه » ، (وذلك لأن تلك الكلمة مثبتة فى العقد وروايتها « غبارات ») .

ألا إن مثل هذا الضرب من التحقيق ينطوى تحت ما يسميه علماء الفرنجة لهذا العهد فى المنهج الذى يجرون عليه فى تحرير المخطوطات والمطبوعات : « التحكم فى رفض رواية النص » . ومنهج القوم فى ذلك هو معتمدنا اليوم (وهو على كل حال سنّة العلماء من عرب وأعاجم فى عهد ترسخ فيه قواعد العلم) . وفى نقدى لكتاب « الإمتاع والمؤانسة » (الرسالة ٣٢٧) مثل على ذلك التحكم . وبيان هذا أن نص رواية من الروايات لا يرفض إذا صح لغةً وأداءً وبياناً ؛ وليس للقارئ أن يستبد بذوقه فيحمل القدماء على أن ينطقوا على هواه أو على مبلغ « تحريره ودرايته » ، وإن صحّ رأيه من جانب . وعلى هذا ، فمعلوم أن الغبارات — أى الشىء الحقير القليل[1] — تعلو الوعاء المهمَل لفساد ما فيه وتطمئن فى زواياه . فلا حاجة بك إذن إلى اجتلاب استعارة قد ينبو عنها بعض الأذواق . ولو كان استشهد المعترض بنص ورد فيه قول ابن شبرمة و « الغبارات » فيه « غبّرات » لكان رأيه نجا من نصف التحكم ؛ ولو كان جلب نصًّا فيه « غبرات (المآلى) » تليها « أوعية » سوء أو نحو ذلك لكان رأيه مقبولاً

هذا والغبارات وردت فى غير طبعة بولاق (مصر ١٢٩٣) للعقد الفريد . فإنك تصيبها فى طبعة المطبعة العثمانية مصر ١٣٠٢ ج ١ ص ٢٠٥ ، والمطبعة الشرفية مصر ١٣٠٥ ج ١ ص ١٥٥

وبعد ، فإنى أريد أن أكون عند حسن ظن المعترض بى . ألم يكتب عن غزير فضل : « إن العالم الثقة الثبت المحقق الدكتور بشر فارس قد علم فسلّم » . وها أنذا فى دار الكتب المصرية — أبقاها الله حصناً للمحققين — وإلى جانبى الصديق الكريم (وفى الناس من تكرم صداقته) الأستاذ كامل المهندس رئيس قسم الفهارس العربية، والأستاذ عبد الرحيم محمود المصحح بالدار ، وبين يدىّ جانب من نسخة مخطوطة، قديمة تصعد إلى المائة السادسة[2] ، مشرقة الخط ، مشكولة ، إن هى إلا « الجزء السادس من كتاب العقد وهو بعض كتاب الياقوتة فى العلم والأدب » . وفى أسفل الورقة الـ ٢٢ ما حرفه بالشكل الكامل المحكم : « ذهب العلمُ إلاّ غُبَارَاتٍ فى أوعيةِ سَوْء »

هذه كلمة لن أردفها بثانية مهما خطر للمعترض أن يقول .

بشر فارس
دكتور فى الآداب من جامعة باريس

(١) أنت تعلم أن الهباء هو الغبار ، والهبوة الغبرة ؛ فاذكر الآية : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » : « شبه عملهم المحبط بالهباء فى حقارته وعدم نفعه » عن البيضاوى

(٢) على ما أخبرنى به الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول مفهرس المخطوطات العربية فى دار الكتب . وهذه المخطوطة غير التى عول عليها لطبعة بولاق ، وسيعرف المعترض سبب ذلك عند المراجعة . ورقم المخطوطة ٢٦٠٦ أدب

« ارتجال المصادر »

طالعت في العدد ٣٤٧ من الرسالة مقالاً في البريد لكاتبه الأستاذ إسماعيل أدهم يحاول فيه أن يرجع تعبيراً للدكتور بشر فارس هو «أذني زلزلت طرباً» إلى تعبير إيطالي يقاربه، في زعمه، للكاتب المسرحي لويجي بيراندللو عن ترجمة تركية

ونحن لا نريد أن نناقش هذا الأسلوب في ترجيع تعبير إلى آخر في غير اللغة التي كتب بها مباشرة (من الإيطالية إلى التركية ثم إلى العربية)، وإنما نريد أن نبين للقارئ كيف يواصل الأستاذ أدهم طريقته في « ارتجال المصادر » (راجع هنا ما قاله الدكتور بشر فارس نفسه في هذا الصدد : الرسالة ٣٢٩و٣٣٠) وإليك الحديث :

قد كنت وضعت رسالة عن الكاتب المسرحي لويجي بيراندللو ونشرتها تباعاً عام ١٩٣٥ على صفحات مجلة الحديث الحلبية ، وذلك بمناسبة فوزه بجائزة نوبل ، وكنت أثبت في هذه الرسالة المصادر الأفرنجية التي اعتمدت عليها في اللغة الفرنسية ، ومن بينها كتاب مستعرض أوربا Carte d'Europe لمؤلفه الناقد Daniel Rops وفي هذا الكتاب وغيره وردت مصادر إيطالية وجدت من تتمة البحث أن أذكر عناوينها ، ومن هذه المصادر كتاب L'uomo Segreto أي « الإنسان الخفي » لمؤلفه فردريكو ناردبللي

وقد تبين لي بعد ذلك أني أخطأت في ترجمة عنوان هـذا المصدر بأن ذكرت « الإنسان المقدس لمؤلفه فردريك ناردبللي » وجاء هذا الخطأ نتيجة وهمي أن كلمة Segreto تفيد « مقدس » والصواب أن الكلمة التي ترادف « مقدس » هي بالإيطالية Sacro وهكذا يرى القارئ أن مصدر الخطأ جاء من تقارب خروج حروف اللفظتين الإيطاليتين

هذا وقد استند الأستاذ أدهم في مقاله المذكور آنفاً إلى هذا الكتاب ، وادعى أنه راجع ترجمته التركية (ص ١١٨ ـ ١١٩) ؛ فذكر عنوان الكتاب هكذا : « الإنسان المقدس » . ونحن نقول إن هذا الكتاب لو كان ترجمه أحد إلى اللغة التركية حقيقة لكان أصاب في ترجمة العنوان وهو سهل الألفاظ واضحها ، (وإلا فكل الترجمة خطأ ولا يعول عليها إطلاقاً)

والحقيقة أن الأستاذ أدهم سطا على هذا العنوان بخطئه — كما رأيت — من صلب الرسالة التي كنت نشرتها في مجلة الحديث عام ١٩٣٥ كما قدمت

ونزيد على هذا أن الأستاذ أدهم في محاولته في مقاله المذكور استند إلى الترجمة التركية « ؟!! » على حين أنه في كتابه « توفيق الحكيم — الفنان الحائر » أثبت عنوان هذا الكتاب ذاته في جدول مصادره باللغة الإيطالية كأنه اطلع عليه . فلم يعمد إلى ترجمة تركية لكتاب سبق أن اطلع عليه في لغته الأصلية إلا لأنه يعرف أن التركية الحديثة غير شائعة عندنا ، فمن يتتبعه ؟

وإذا كابر الأستاذ أدهم في هذا الصدد فليرسل إلى إدارة مجلة الرسالة الترجمة التركية المزعومة لمجرد الاطلاع عليها والإفادة منها

محمد أمين حسونة

الحجز على المتاع

سيدي الفاضل الأستاذ الزيات

تحية وسلاما . وقع نظري على إعلان حجز نشر في جريدة البلاغ يوم الجمعة الماضي أو السبت الذي يليه على ما أذكر ؛ فقد أردت أن أحتفظ بالعدد المنشور فيه هـذا الإعلان لولا عبث أطفالي به وهم لا يأبهون بما فيه ، ولكن إليك ملخصه (ولك أن تراجع أعداد البلاغ المشار إليها للتحقق منه)

« في يوم ٤ مارس سنة ٩٤٠ سيصير بيع المنقولات الآتية وهي : حلة وأنبر (وكيلة ذرة) ملك . . . وهذا البيع بناء على طلب حضرة صاحب المعالي وزير الأوقاف وفاء لمبلغ . . قرشاً »

وكان بودي لو تعيرني قلمك لأعلق على هذا الإعلان المؤلم ؛ بيد أني خشيت أن يكون في يدي قصبة لا روح فيها أو كالمهند في يد طفل ضعيف. والموضوع يحتاج إلى صرخة مدوية تهز أوتار القلوب ، وأنت فارس هذا الميدان ، ولنفائس يراعتك ما ينفس عن القلوب المكلومة ، وفيك الرجاء في معالجة الأمر بحد القلم الذي حرك أولي الأمر في أكثر من حادثة

إن بعض القوانين تحرم الحجز على كثير من أنواع المتاع فما بالك بالحجز على القوت الضروري ؟ فهل بلغ الحرص بوزارة الأوقاف على أموالها هذا المبلغ وهناك الكثيرون من أبناء الأثرياء الذين أضاعوا أموالهم على الخمر والميسر وأنواع الفجور، أصبحوا يعيشون في رغد من المرتبات التي تصرف لهم من الأوقاف من غير استحقاق أو عمل يعملونه لأنفسهم ولبلادهم ، وناهيك بغير هؤلاء ممن تعرف

ومما زيدنا تألماً أن يصدر هذا التصرف الشاذ في عهد وزير خلق وزارة الشئون الاجتماعية لخدمة الإنسانية

فمتى نعرف البر بالفقير إذا كانت وزارة البر والإحسان تأخذ اللقمة من فم الفقير لتطعم بها أبناء الأعيان أو تؤثث بها غرف موظفيها بأنواع الأثاث الفاخر؟

يا لله ... وزارة الأوقاف تنزع من فقير « حلة وأجر وكيلة ذرة » وهى بالطبع كل ما يملكه من حطام الدنيا!

أين الرحمة! أين الشفقة! ... يا للإنسان من ظلم الإنسان!

احمد محمد على

استفهام

فى كتاب « تاريخ الأدب » المقرر بالمدارس الثانوية تحت عنوان: « نماذج من شعر المخضرمين » شعر لأبى دهبل الجمحى على أنه مخضرم، وعلى أنه قيل فى مدح رسول الله عليه الصلاة والسلام، وأول الأبيات هو:

إن البيوت معادن فنجاره ذهب وكل بيوته ضخم

وروى الأغانى فى الجزء السابع « طبعة دار الكتب ص ١٣٤ » أن هذه الأبيات فى مدح عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بابن الأزرق، والى عبد الله بن الزبير على بعض أعمال اليمن. فأى هاتين الروايتين نصدق؟ ولم أسقط الأساتذة الأجلاء المؤلفون الرسميون روايتهم تلك؟ وكيف يحتمل أن يكون مخضرما وقد عاش إلى خلافة عبد الملك بن مروان؟

هذه أسئلة غرضى منها تعرف الحقيقة فحسب، فلعلى أظفر بمن يهدى إليها « محموداً مشكوراً »

قارئ

البروفسور ويلسون

وصل إلى القاهرة عن طريق الجو فى الأسبوع الماضى البروفسور دوفر ويلسون أستاذ البلاغة والأدب الإنجليزى فى جامعة أدنبرة، قادماً إلى مصر بدعوة من المجلس البريطانى، والاتحاد المصرى الإنجليزى، لإلقاء طائفة من المحاضرات العامة، يدعى إليها كبار رجال التعليم فى وزارة المعارف والجامعة، كما أنه سيباح الاستماع إليها لكل راغب فى ذلك

وسيلقى الأستاذ دوفر أولى محاضراته فى الساعة السادسة من مساء يوم ١٤ مارس الحالى، بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية، تحت رعاية الاتحاد، ويتحدث فيها عن « شكسبير وعصره »

ويلقى بعد ذلك محاضرات أخرى عن نظم التعليم الحديثة فى انجلترا وعن الحياة الاجتماعية والسياسية فى لندن يلقيها فى المعهد البريطانى وفى قاعة يورت التذكارية. ثم يلقى محاضرات أخرى فى الأسكندرية وبور سعيد والسويس

وللأستاذ ويلسون أبحاث قيمة عن شكسبير ومؤلفاته، وإليه يرجع الفضل فى إخراج الطبعة الحديثة من مؤلفات هذا الشاعر العظيم التى أصدرتها جامعة كمبردج أخيراً. وقد أخرج فى شئون التعليم ونظمه كتباً يسترشد بها رجال التعليم فى انجلترا إذ كان أستاذاً للتربية والتعليم فى جامعة لندن، ثم أستاذاً للأدب الإنجليزى فى جامعة كمبردج

حول لقب السفاح

قرأت فى مجلة (الرسالة الغراء) فى الجزء ٣٤٢ وغيره ما كتبه الكاتبان (الأستاذ محمود شاكر والأستاذ الصعيدى) فى (لقب السفاح). وعجبت لقول الأستاذ العبادى – على ما نقله الأستاذ الصعيدى –: إن الرواية التاريخية القديمة كرواية ابن سعد وابن عبد الحكم والبلاذرى والدينورى وطيفور واليعقوبى، والطبرى والنوبختى والكندى لم تلقب (أبا العباس) بالسفاح فالمؤرخون كالمجمعين على تلقيبه بذلك، بل هو أشهر من لقب بهذا اللقب جاهلية وإسلاماً

ولعل من المفيد أن أنقل ما قاله الحافظ بن حجر فى كتابه (نزهة الألباب فى الألقاب) من مخطوطات دار الكتب المصرية. قال: «السفاح: أول خلفاء بنى العباس، هو أبو العباس عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس. ولقب به من القدماء سلمة بن خالد بن كعب التغلبى رئيس بنى تغلب أحد فرسان الجاهلية، وقيل له ذلك لأنه سفح الروايا يوم الكلاب الأول»

غسان صلاح الدين

حول لوبيا المجهولة

حضرة الأستاذ على معمر الطرابلسى

قرأت مقالك المنون بلوبيا المجهولة فى العدد ٣٤٤ من مجلة الرسالة الغراء، فكانت دهشتى منه كبيرة، ولو كنت تعلم أن الإنسان الذى حملت عليه تلك الحملة الهوجاء يحمل فى قلبه غيوماً من الأسى الممض والألم المبرح على شقيقتنا (طرابلس الغرب) الإسلامية العربية — لما أقدمت على إذابة قلبه بكتابة ذلك المقال ... لو كنت تعلم أن ذلك الإنسان لا يعترف بالوطنية الضيقة، بل هو يعتبر كل وطن إسلامى – بله العربى – وطناً له

يعتز به ويفخر بالانتساب إليه ويعتقد أن له عليه من الحقوق مثلما لوطن المولد — ما جرحت قلبه بمثل ذلك الرد

ومع ذلك فالذنب ليس ذنبك ولا هو ذنبي، إنما هو ذنب «السياسة ومراعاة الظروف» وكفى بأستاذنا الزيات شاهداً على أنني ما أغفلت ذكر طرابلس الغرب من كلمتي ولا سهوت عن تعطير قلمي بها

لقد ذكرت طرابلس الغرب على انفراد وفى أسطر خاصة، لأن لها في قلبي مكاناً ممتازاً؛ ثم جاء قلم من الأقلام فحذفها جملة رعياً للظروف الحاضرة. ولم أجملها فى ضمن بلدان «الشمال الأفريقي» لأن هذه اللفظة بفضل السياسة أصبحت لا يراد بها إلا الأقطار الواقعة تحت حماية فرنسا أو استعمارها وهى: تونس، والجزائر، والمغرب ... أفتراني يا حضرة الأستاذ مقصرين فى حقوق الجارة الشقيقة وجاهلين بجهادها وبلائها ومحنتها التى ينفطر لها كل قلب عربى مسلم؟

ثم أسألك كيف جاز لك أن تسمى طرابلس الغرب «لوبيا» وهو لفظ أطلقته عليها السياسة لتمحو به المعنى العربي، والتاريخ العربى لهذه البلاد، وتنقل السامعين له فوراً إلى عهدها الأول قبل الإسلام يوم كانت أحد أجزاء الامبراطورية الرومانية؟ وأنت طرابلسى فهل ترضى أن ننسبك إلى لوبيا؟

إن المسلم حين يسمع لفظة (الأندلس) يمر بخياله تاريخ مجيد للإسلام والعروبة، مضى وترك مآسيه منقوشة فى القلوب؛ ولكنه قد لا يمر بخياله شىء من ذلك إذا سمع لفظة (أسبانيا)، مع اعترافى بأن طرابلس الغرب أمة عربية خالدة بخلود الزمن

فيأيها الأستاذ، لتكن شديد الثقة بأن العرب وحدة لا تتجزأ، وأن الدم العربى أينما حل لن تنقطع وشائجه ولن تنفصم أواصره مهما جار عليه الزمان وبدد شمله على الأوطان، والسلام عليكم ورحمة الله.

(فاس) «أبو الوفاء»

تصويبات فى العدد الممتاز

جاء فى آخر المقال الافتتاحي (محمد الزعيم): «قد جاءتكم بصائر من ربكم» والصواب جاءكم

وفى مقال الأستاذ العقاد: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله» والصواب حذف (كله)

وفى مقال الأستاذ فريد وجدى: «ولو على أنفسكم أو الأقربين» والصواب (ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)

٣ – وحى الرســـالة

[من واجب «الرسالة» أن تنشر ما يتفضل به عليها الأدباء الزملاء والأصدقاء من صادق النقد وجميل الرأى في كتاب «وحى الرسالة» تسجيلا للفضل منهم والشكر منا]

قالت زميلتنا المقتطف فى عددها الصادر فى أول مارس:

قال الزيات: «قارئى العزيز، اخترت لك هـذه الفصول مما كتبته للرسالة فى ست سنين. وكان من عادتى أن أكتب الفصل منها أصيل السبت من كل أسبوع، ثم لا أكتبه طوعاً لتأثير قراءة، أو تحرير فكرة، أو تخمير رأى. وإنما كان أثراً لوحى ساعته أو حديث يومه أو صدى أسبوعه. فالزمن جزء منه متمم لمعناه: يبين ملابسته للحادث، ويعين مناسبته فى التاريخ، لذلك أعقبت كل فصل بذكر اليوم الذى كتب فيه ليتضح موضعه بفعله وحاله وظرفه»

هذا خير ما يوصف به هذا الكتاب. فأنت ترى أنى لا أستطيع أن أزيد فى صفته من حيث التأليف والتبويب، ولكنى أستطيع أن أقدم بين يدى قارئه بعض الرأى فى أدب صاحبه

وأنت إذا تناولت هـذا الجزء فقرأت فهرسه، رأيت مائة وعشرين باباً من أبواب القول قد افتتحها «الزيات» بقلمه وسناها برأيه، ومهدها بحسن بيانه، ولكل باب منها غرض، ولكل غرض أسلوب، ولكل أسلوب لفظ يصلح عليه ولا يصلح عليه غيره. وإذا كان الكتاب كذلك كانت المشقة فيه أعظم من مشقة التأليف المرسل إلى غرض واحد لا يتميز إلا بالاتجاه، فإن الغرض الواحد قلما يخرج أسرار البيان من قلب الكاتب ولسانه، لأن الأسلوب إليه قلما يختلف. فإذا اختلفت الأساليب باختلاف الأغراض محصت قدرة الكاتب على ما اعترض له وهمّ إليه من الكتابة

فإذا أنت أخذت هذا الكتاب بين يديك وسايرته فصلاً فصلاً وأسلوباً أسلوباً، عرفت الجهد الذى لقيه صاحبه فى إبداعه، ورأيت «الزيات» فى كل أسلوب هو «الزيات» لا يختلف

ولا يتنافر ، والكاتب إذا صار إلى هذه المرتبة — حيث تراه هو هو مهما اختلفت الأغراض وتباينت الأساليب — فاعلم أنه إنما يشتق لك كل ما يكتبه من حر نفسه ؛ فيضنيها ويهلكها مخلصاً صابراً لا يمل . وإذا كان الكاتب كذلك فهو كاتب لا يزيف لك ولا يقبل الزيف ، وهو يعطيك ولا يسألك ؛ ويبذل لك ولا يمنّ عليك ، ويعلمك ولا يدعى لك أنه أعلم منك ... ذلك بأنه قد بلغ من العقل والفكر والصفاء والبيان حيث يعلم أنه ملك قارئه لا أن القارئ ملك له ، وأنه مرشد لا مسيطر ، وأنه أخوك الذى يناقلك الحديث وإن كان بمنزلة الأب

و « الزيات » — كما عرفته من كتابته — روح هادئة متكتمة مسترسلة ، يكاد يختفى فى نفسه حين يفكر كأنه فيلسوف من فلاسفة الصين : يمشى هادئاً ، ويفكر ساكناً ، ويحاسب نفسه ولكن على التسامح والرضا والاستسلام ؛ فإذا أراد أن يقيد أحلامه وأفكاره وهواجسه كان هو الهادئ الساكن المتسامح ، فإذا اشتد وتحمس وأراد أن يتفجر ، خيل إلىّ أنه عين حمئة ترسل لواذعها سكباً ساخناً حامياً كالماء إذا غلى ثم هدأ أول هدأة لا يضرب بعضه فى بعض . ولذلك ترى نقده إذا نقد شديداً بالغاً ، ولكنه رفيق غير عنيف ، ولكنه على ذلك مما تخشى صواعقه . وهذه الروح التى وصفناها هى التى تجعل كل كلامه قطعاً مزينة ناضرة محكمة مقدرة الألوان لا يختلط شىء منها بشىء ، ولا يجور لون منها على لون . وهى التى تجعل كل لفظه مبنيًا على الإيجاز دون الإطناب ، وعلى مذهب الحكمة دون المذهب الكلامى ؛ وإذا أردت أن تتبين كل ذلك حقيقة التبين فلا تتكلف أكثر من أن تقرأ إهداء كتابه . يقول لولده « رجاء » الذى احتسبه عند ربه فى سنة ١٩٣٦ :

« إلى روحك اللطيفة العذبة — يا ولدى رجاء — أقدم هذا الكتاب ، فلولاك ما أنشأت الرسالة ، ولولا الرسالة ما أنشأت هذه الفصول »

فإن فى هذه الكلمات القلائل لوعة مستكنّة باقية إلى يومنا هذا ، ولكنها ساكنة راضية هادئة لا تثور ولا تتأجج ، ولكنها تسرى وتدب وتمشى فى روحه الهوينا الهوينا

هذا سر أسلوبه . وأما أسلوبه وبيانه واقتداره على عربيته وحسن تصريفه لألفاظه فى وجوه أغراضه ومراميه ، فالزيات — ولا أشك — هو بقية أصحاب الأقلام العربية التى لا تخلط ولا تتقمم من هنا وهنا — فأنت إذا نفذت إلى كل جملة من كلامه فى هذا الكتاب لم تجد إلا عربية خالصة مطاوعة لينة ، لا ينافر حرف منها حرفاً — على كثرة الأغراض التى رمى إليها واختلافها ، وعلى ظن من لا يعلم أن العربية لا تطيع فى التعبير عن الضرورات الحديثة التى قسرتنا عليها مدنية القرن العشرين من ميلاد المسيح

فلو أتاح الله لهذه العربية من يخلص لها فى معاهد التعليم على اختلاف أغراضه وأنواعه ، وأراد أن يرد على العربية شباب أيامها حتى تكون لغة مدنيتنا فى الأدب والعلم والفن ، لوجد فى الذين أبادوا شبابهم بالعمل لإحياء اللسان العربى فى هذا العصر قوماً قد استطاعوا أن يجعلوا عربيتهم أصلاً فى الحياة ، إذ جعلوا الحياة أصلاً فيها ، وبقية هؤلاء هو « الزيات »